

الفصل الرابع

العادة الثالثة

طبق فقه الأولويات (ابدأ بالأهم فالهم)
(أسرتك هي الأولوية الأولى في حياتك)





الفصل الرابع: العادة الثالثة



طبق فقه الأولويات (ابدأ بالأهم فالهم) (أسرتك هي الأولوية الأولى في حياتك)

حسنًا، أعرف ما سوف تسمعه من كل من تقول له: أسرتك هي الأولوية الأولى. (ليس لدي وقت). لكن إن لم يكن لديك الوقت لليلة واحدة أو على الأقل ساعة كل أسبوع يجتمع فيها شمل الأسرة، إذن فأسرتك ليست صاحبة الأولوية الأولى في حياتك، هذا ما قالته أوبرا - صاحبة البرنامج التلفزيوني الأمريكي الشهير (مع أوبرا) لستيفن كوفي عندما استضافته لتتحدث معه عن كتابه.

في هذا الفصل سنلقي نظرة على جزأين مهمين من وقتك سوف يساعدانك في وضع أسرتك على رأس أولوياتك، وعلى تحويل بيان الأسرة إلى دستور يحكم حياتك وحياتك أسرتك، أحد هذين الجزأين هو: تخصيص وقت للأسرة أسبوعيًا، والجزء الثاني هو: تخصيص أوقات لتوطيد العلاقة مع كل فرد من أفراد الأسرة على حدة، وعن طريق هذين الوقتين تستطيع أن تضع أسرتك على رأس أولوياتك بالفعل، وبطريقة فعالة وليس بالكلام أو الأمنيات، وتبادر إلى الأهم فالهم في حياتك.

3-1 عندما لا يكون الأهم هو الأهم (عدم فقه الأولويات):

أسوأ ما يمكن أن تشعر به هو عندما تدرك أن الأهم في حياتك قد تحول إلى المرتبة الثانية أو الثالثة، وهي أسرتك، ويزداد شعورك سوءًا عندما تبدأ من ملاحظة عواقب ما حدث عندما لم تضع أسرتك في المرتبة الأولى، ووضعت عملك بدلًا منها.

اقتربت فتاة صغيرة من مكتب والدها الذي كان غارقًا في ترتيب الأوراق ومنهمكًا في كتابة جدول، وقفت الصغيرة إلى جواره دون أن يلاحظها، ثم قالت له أخيرًا: أبي ماذا تفعل؟ - ودون أن يرفع بصره - أجابها: لا تقلقي يا عزيزتي، إنني أكتب أسماء كل من أريد أن



أقبلهم وأتحدث معهم في كل الأمور المهمة الخاصة بي، ترددت الصغيرة قليلاً ثم سألت والدها: وهل اسمي مكتوب؟! قال الفيلسوف الألماني جوته: «لا يجب أن تضع الأمور المهمة تحت رحمة الأمور الأقل أهمية»، فلا يمكن أن ينجح أي واحد منا في أسرته وهو لا يضعها على رأس أولوياته، وهذا ما تقوله العادة الثالثة.

**العادة الأولى تحدد لنا ما هي الأمور الأهم، أما
العادة الثالثة فهي تتعلق بكيفية التزامنا بتلك
الأمور الأهم.**

العادة الثالثة هي اختبار مدى عمق الالتزام بتلك الأمور عند كل واحد منا، وهي اختبار مدى نزاهتنا في تحقيق التكامل بين أسرنا والمبادئ التي التزمنا بها من رعاية وحب لهذه الأسرة، حسناً، لماذا إذاً لا نضع الأهم في مكانه الصحيح؟ معظم الناس يشعرون بأن الأسرة هي صاحبة الأولوية الأولى، وكثيرون يضعون الأسرة حتى قبل الاهتمام بصحتهم إذا تطلب الأمر، وقد يضحون بأنفسهم من أجل الأسرة، لكن إذا سألت هؤلاء الناس عن أسلوب معيشتهم وعلام يصرفون انتباههم وتركيزهم الأساسي، ستجد أن الأسرة لديهم في مرتبة أدنى بعد العمل والدعوة والأصدقاء وحتى الهوايات الخاصة، لماذا يحدث ذلك؟

يقول كوفي: بعد إلقاءي لإحدى المحاضرات تحدث معي رجل فاضل، وقال لي: ستيفن، لست أدري في الواقع إذا كنت راضياً عن حياتي، ولست أدري أكان الثمن الذي دفعته لقاء ما وصلت إليه باهظاً أم لا؟ لقد أوشكت أن أصبح رئيساً للشركة، إن الوظيفة ستبتلعني فأنا أعلم تبعاتها ومتطلباتها، وأنا أريد تمضية وقت مع أسرتي ومع أحفادي، لأن أكثر ما أفتقده الآن هو أنني لم أستمتع بطفولة أبنائي فلم أكن موجوداً معهم، وحتى لو تواجدت بجسدي فلم أكن موجوداً بروحي، فعقلي وقلبي كانا يركزان على عملي، لقد أردت أن أخصص لهم وقتاً كبيراً ولكنني لم أستطع، كثيراً ما كنت مشتت التركيز عندما أكون معهم، بل إنني حاولت أن أشتري حب أبنائي بالإغداق عليهم بالهدايا، لكن لم تكن هناك رابطة حقيقية بيني وبينهم.



وأبنائي يشعرون بهذه الخسارة الفادحة أيضًا، لقد ارتقيت سلم النجاح المهني ولكن عندما أوشكت أن أبلغ قمته أدركت أنه يستند على الجدار الخاطئ، فأنا أفتقد ذلك الشعور بالثقافة الأسرية التي تحدثت عنها يا ستيفن، وأشعر بأنني إذا وصلت لهذا الشعور سأجد الثراء الذي أنشده، فالثراء ليس ثراء المال أو المنصب، إنه ثراء العلاقة الأسرية القوية، وبدأ الرجل يشرح لستيفن كوفي أنه قام بتصميم منزل الأجيال الثلاثة الذي ينوي بناءه ليقوم فيه هو وأولاده وأحفاده، حتى يمضي سنوات المعاش وهو يعايش أحفاده يوميًا، وقال له: أنا أحاول الوصول إلى أبنائي من خلال أبنائهم، وهذا ما يجبه أبنائي، فهم يحبون أن أندمج مع أبنائهم. ثم قال: إن ما يهمني يا ستيفن هو أنه إذا كان قبولي لهذا المنصب سيعني أننا لا بد أن نتنقل إلى مدينة أخرى، أو أنني لن يكون لدي وقت كي أرى أبنائي وأحفادي فلن أقبله.

لاحظ أن الأسرة لم تكن على رأس أولويات هذا الرجل لسنين طوال، وأنه أضاع من عمره سنوات عديدة افتقد فيها إلى التجربة الأسرية الغالية بسبب عمله، لكنه آن ذاك بدأ يدرك أهمية أسرته في ذلك الوقت المتأخر من العمر، وفي الحقيقة لقد أصبحت أسرته أهم شيء في حياته لدرجة أنها أصبحت أقوى من طموحه الوظيفي في أن يصبح رئيسًا لشركة دولية، وهي الدرجة الأخيرة في سلم النجاح الوظيفي، ومن الواضح أن وضع الأسرة على رأس الأولويات لا يعني بالضرورة بناء منزل جديد أو التخلي عن طموحك الوظيفي، لكنه يعني أن تفعل ما تقول، بأن تعكس حياتك فعلاً القيمة العليا للأسرة، ففي ذروة الضغوط - خاصة ضغوط العمل والوظيفة - تغيب عن نظر الكثيرين أولوية الأسرة، لكن فكر في الأمر من هذه الزاوية: إن دورك الوظيفي هو دور مؤقت لحين التقاعد، وسوف تتغير حياتك بصورة تامة بعد التقاعد إذا كنت غارقاً في ثقافة العمل فقط، وستهزئ ثقتك بموهبتك وتحس بفراغ هائل.

أما دورك في أسرتك فليست له نهاية، فلن يأتي من يحل محلك فيه أبداً، دورك في أسرتك والحاجة إلى ممارسة هذا الدور لن ينتهيا حتى بعد وفاتك، سيظل أبنائك وأحفادك ينظرون إليك كوالد أو كجد، الأدوار الأسرية هي من بين الأدوار القليلة في الحياة التي لا تنتهي، بل هي أكثر الأدوار استمرارية، ولهذا فمن الخطأ أن تضع أولوية أكبر على دور مؤقت تاركًا رصيدك من الدور الدائم فارغًا، فأنت بذلك تنخدع بالنزرة اليسير للدور المؤقت وتحرم



نفسك من ثراء الحياة الحقيقي، ومن الشعور العميق والدائم بالرضا والذي لا يتولد إلا من العلاقات الأسرية الجميلة.

إذن، لماذا لا نضع الأسرة على رأس أولوياتنا؟ حتى في بداية الزواج أو عندما يكون الأبناء صغارًا ويحتاجون إلى أكبر قدر من الرعاية؟ بالنسبة لكثير منا فإن الحياة تشبه كثيرًا تلك الحياة التي صورها طاغور (فيلسوف الهند) عندما قال: «الأغنية التي أتمنى غناءها لا تزال دون غناء، فلقد أمضيت أيامًا طويلاً في شد وفك أوتار الآلة الموسيقية»، لقد غمرتنا الحياة بمشاغلها التي لا تنتهي، نحن نتحرك بالفعل، لكن لا يبدو أننا نصل إلى مستوى غناء الأغنية أبدًا.

3-2 الأسرة: استعراض على الهامش أم شاشة عرض رئيسية؟

السبب في عدم وضعنا للأسرة على رأس الأولويات أننا لسنا على علم تام بأولوياتنا الرئيسية، هل تذكر قصة الرجل وسيدة الأعمال وأزواجهم وزوجاتهم من رجال الأعمال أيضًا التي أوردناها في العادة الأولى، هل تذكر كيف كان صعبًا عليهم أن يكتبوا بيانات بمهام أسرهم؟ وكيف كانوا عاجزين عن تحقيق النجاح الذي أرادوه في حياتهم الأسرية، إلى أن وضعوا بالفعل أسرهم على رأس أولوياتهم، ووضعوها في قلوبهم وعقولهم، لقد استخدموا التغيير من الداخل إلى الخارج لينجحوا، كثيرون يريدون أن تكون الأسرة بالفعل هي الأولوية الأولى في حياتهم، لكن إلى أن تظهر هذه الأولوية ويكون الالتزام بها أقوى من أي عوامل أخرى تؤثر في حياتهم اليومية لن تصبح الأسرة بالفعل على رأس أولوياتهم، وسوف ينجرفون وراء أمور أخرى.

في أبريل 1997 نشرت جريدة (يو إس نيوز أند وورلد ريبورت) مقالاً قاسياً بعنوان «الأكاذيب التي يقوها الآباء لأنفسهم ليبرروا سبب انشغالهم بأعمالهم»، وكان المقال يتحدى الآباء كي يبدؤا رحلة البحث داخل أنفسهم وضمايرهم فيما يتعلق بأعمالهم، وفحص عدة أشياء زعموا بأنها تتساوى في أهميتها مع أهمية إيجاد توازن صحيح بين تربية الأولاد والعمل، وبين المقال كيف أنها تتضمن قدرًا كبيرًا من خداع النفس والزيغ، وقدم المقال قائمة بخمس أكاذيب يقوها الآباء لأنفسهم ليبرروا أو يخلقوا الأكاذيب المتعلقة باهتمامهم بأعمالهم، وهي:



الكذبة الأولى: أنا بحاجة إلى المزيد من المال: الأبحاث تشير إلى أن أغنياء أمريكا يبررون سعيهم الدائم وراء المال كما يبرره من يقتربون من حافة الفقر وهو أنهم يريدون تلبية احتياجاتهم الأساسية.

الكذبة الثانية: الرعاية اليومية التي أوفرها لأولادي ممتازة: أظهرت أحدث الدراسات الشاملة التي أجراها الباحثون في أربع جامعات أمريكية أن: 15% فقط من الحضانات على قدر عالٍ من الكفاءة، لكن 70% منها تفتقر حتى لأدنى شكل من الكفاءة، و15% حالتها دون المستوى الآدمي، والأطفال الذي يتلقون رعايتهم في فئة الـ70% الثانية لا يمسهن سوء من الناحية البدنية، لكنهم لا يتلقون دعمًا عاطفيًا إلا فيما ندر، ولا يحظون إلا بقدر بسيط من التحفيز الذهني.

الكذبة الثالثة: الشركات التي نعمل بها تفتقر إلى المرونة وهي السبب: والحقيقة أن السياسات المعنية للأسرة والتي تتبناها شركات كثيرة أصبحت عديمة الأثر؛ لأن الموظفين بها - أو نسبة كبيرة منهم - أصبحوا يفضلون المكوث في مكاتبهم عن الذهاب إلى بيوتهم، لقد أصبحت الأسرة مكانًا لا يشيع فيه جو البهجة والسعادة، بينما أصبح مكان العمل هو الذي يشيع فيه هذا الجو، حيث يزداد التفويض وروح العمل الجماعي والتواصل الاجتماعي، ويصبح هو الأسرة الحقيقية لهم، فالشركة لا تفتقر إلى المرونة ولكن الموظفين هم الذين لا يريدون.

الكذبة الرابعة: الآباء سرحون بالبقاء في البيت إذا استطاعت الزوجة كسب مال أكثر: في واقع الأمر قليل من الرجال يقبل بجدية هذا الأمر؛ لأن الرجال يعرفون الرجولة ليس على أنها القدرة العضلية أو البدنية وإنما على أنها القدرة على كسب المال وإعالة الأسرة؛ ولذا فالبقاء في البيت ينقص من رجولتهم ولا يرحبون به.

الكذبة الخامسة: الضرائب المرتفعة تجبر الزوجين على العمل: حتى أحدث التخفيضات الضريبية لم تمنح أزواجًا ميسوري الحال من الخروج لسوق العمل كليهما، وهما غير مجبرين على ذلك في الحقيقة.

من السهل أن نصدق موضوع مستوى المعيشة الذي لا يجب أن نقل عنه، بحيث نبني كل قراراتنا المتعلقة بأسلوب حياتنا على الاعتقاد بأن كلا الأبوين لا بد أن يعمل كل الوقت،



ونتيجة لذلك يجبس الأبوان نفسيهما في تلك الأكاذيب مضللين ضميرهما، ومعتقدين في الوقت نفسه أنه ليس لديها خيار آخر، وأفضل نقطة يمكن الانطلاق منها هي الإيمان بأن عمل الأبوين ليس أمرًا غير قابل للتفاوض، وهذا التحول في المفهوم الذهني سيفتح الباب أمام كل الاحتمالات الإبداعية الممكنة لعمل الزوجين.

في كتابها «الملاذ لبعضنا البعض»، والذي حقق أعلى المبيعات، تطرح عالمة النفس ماري بيغير قصة زوجين نسيا حياتهما الأسرية في غمرة الانشغال بتحصيل الرزق، كلاهما كان يعمل ساعات طوالًا لكسب مال أكثر، وشعرا بأنهما ليس لديهما وقت لاهتماماتهما الشخصية أو حتى لتوأمهما البالغين من العمر ثلاث سنوات، وتعرض كيف أنها كانا يتألمان لأن المريبة التي جالست طفليهما هي التي شهدت خطواتها الأولى في المشي وهي التي سمعت أول كلمات نطقا بها، وهي التي تبلغها بوجود أي مشكلات في سلوك طفليهما، وشعر الزوجان بأن الحب هجر حياتهما.

وشعرت الزوجة بالأخص بالعذاب لأنها لم تستطع تقديم المساعدة لأمرها المريضة بالسرطان، وبدا لهما أنها وقعا في فخ ظناه في بادئ الأمر حالة مستعصية لا سبيل لعلاجها، ثم اكتشفا أنه كان فخًا كان يمكنها تجنبه، فمن خلال تناوبها على الاستشارات النفسية تمكنا من القيام ببعض التغييرات التي أحدثت تحولًا جذريًا في حياتهما، فبدأ بتخصيص يوم الإجازة لرعاية الأسرة ورعاية بعضهما البعض، من خلال تبادل لمسات وكلمات الحب والحنان، وأخبر الزوج رؤساءه في العمل بأنه لم يعد راغبًا في العمل أيام السبت، واستقالت الزوجة من عملها وتفرغت لرعاية الطفلين، وذلك حين يصلان لسن الذهاب إلى المدرسة، وطلبًا من أم الزوجة أن تنتقل للسكن معها، فمن ناحية سيوفران جزءًا من نفقاتها وسيوفران للطفلين مصدرًا جيدًا للحكايات، وتخلي الزوجان عن أشياء كثيرة لأن دخلهما نقص، فبدأ الزوج الذهاب إلى العمل مصطحبًا جيرانه وزملاءه في العمل في سيارته أو سياراتهم بدلًا من الذهاب بمفرده، وتوقف الزوجان عن شراء ما لا يلزمهما واكتفيا بالضرورات، وتوقفوا عن تناول الطعام خارج المنزل، وكما قالت عالمة النفس: أن عليهما أن يختارا بين توفير وقت لأسرتهم أو لكسب مزيد من المال، ولكن ليس كليهما معًا، وقد اختارا توفير الوقت للأسرة، هذا الاختيار هو ما أحدث فرقًا جوهريًا في حياتهما الشخصية والأسرية، وأصبحت أكثر



سعادة، وأكثر شعورًا بالرضا عن الذات وأقل توترًا وأكثر حُبًا.

بالطبع قد لا يكون هذا هو الحل المناسب لكل أسرة تشعر بأنها نسيت نفسها بسبب متطلبات الحياة ومشاغلهما، لكن الفكرة أنه لديك اختيارات، يمكنك أن تخفض ساعات عملك الإضافي، أو أن تبسّط أسلوب معيشتك وتقلل مصاريفك، أو تغير مهنتك، أو تنتقل من وظيفة تشغل كل وقتك وتتطلب الكثير من الوقت المستغرق للذهاب والمجيء من العمل، وتوفر وقتًا من خلال تقليل عدد أيام العمل، أو العمل في مكان قريب من المنزل نفسه، أو العمل من المنزل، أو الاشتراك في عمل مُقسّم المهام بحيث لا تذهب طول الوقت إلى مكان العمل، خلاصة القول: أنه ليست هناك حاجة لأن تحبس نفسك داخل تلك الأكاذيب بأن لا بديل عن العمل بهذه الطريقة وفي هذه الوظيفة بالذات، إذا كنت تعتبر أسرتك بالفعل هي أولويتك الأولى في الحياة، فوضعك لأسرتك على رأس أولوياتك سيفتح أمامك مجالات لاستكشاف بدائل أخرى للعمل أكثر ابتكارًا وأقل ضغطًا عليك.

3-3 الأبوة والأمومة دور فريد:

لا شك أن حصولك على مزيد من المال يعني أنك ستضمن حياة أفضل، ليس لك وحسب بل لأبنائك أيضًا، فيمكنهم الالتحاق بمدارس أفضل والحصول على أجهزة حاسب آلي شخصية، بل والتمتع برعاية صحية أفضل، ولكن لا شك أيضًا أن الدور الذي يلعبه الأبوان دور فريد من نوعه ولا يمكن لأحد تعويضه، فهما يقدمان ذلك النوع من الرعاية المقدسة لأبنائهما، فهل هناك شيء آخر أسمى وأرفع من استكمال هذه الرعاية جسديًا واجتماعيًا وعقليًا وروحيًا؟ ليس ثمة بديل عن العلاقة المتميزة التي تربط بين الأب وابنه خصوصًا بعد أن يصل الابن إلى سن الرابعة عشرة ويحتاج أن يصاحبه أبوه، وقد تمر بنا أوقات نتصور فيها أن هناك ما يعدل ذلك، خصوصًا عندما يكون الأطفال أصغر سنًا، وعندما تذهب بابنك للحضانة أثناء فترة النهار تحب أن تقنع نفسك بأن الحضانة جيدة كي تطمئن نفسك على ابنك، وقد تتصور أن المدرسة في الحضانة هي صاحبة الشخصية والكفاءة الملائمتين لرعاية وتربية ابنك، فنحن نصدق بسهولة بالغلة كل أحلامنا، وهذا جزء من أسلوبنا في معالجة الأمور، لكن الحقيقة غير ذلك، فالحقيقة هي أنه لا توجد حضانة ملائمة تمامًا، فكما يقول خبير تربية أطفال «لا يمكنك أن تدفع لشخص ما أجرًا كي يقوم للطفل



بأمر يمكن أن يقوم بها أبواه بدون مقابل»، حتى أكثر دور الحضانة نفوقاً وجودة لا يمكنها إعطاء الطفل مثل ما يعطيه أب عطوف وأم حنونة، ولهذا لا بد أن يظهر الأبوان التزامهما بأبنائهما قبل أن يلتزما بعملهما، وحتى مع وجود رعاية جيدة سيسأل كل أب نفسه: «وإلى متى سأعطي هذا التوكيل لغيري كي يرضى أبنائي؟».

كان لدى كوفي وزوجته أصدقاء سألوا أنفسهم هذا السؤال عندما كان أبنائهما صغيراً، وقد شعروا وقتها بأن لديهم مطلق الحرية ليفعلوا ما يحلو لهم، فقد كان أبنائهما وقتها خاضعين لهما ومعتمدين عليهما، وكان يمكنهما بسهولة الحصول على مقدمي رعاية كي يكونوا أبوين بديلين لأبنائهما، ثم انخرطوا في دوامة الحياة، لكن الآن وقد كبر أبنائهما بدءوا في حصاد ما زرعه، فلا توجد رابطة الآن بينهما وبين أبنائهما، وظهرت على الأبناء سلوكيات مدمرة، وبدأ الأبوان يشعران بقلق شديد عليهم، وأخذوا يقولان: «لو أن لنا كرةً لأعطينا أسرنا اهتماماً أكبر، وبالتحديد لأعطينا اهتماماً أكبر بهؤلاء الأطفال وهم صغار، كنا سنجعلهم أفضل استثمار لنا في الحياة».

وقد مرت بي تجربة أثناء عملي أستاذاً في هندسة المطرية، فقد لاحظنا أن أحد طلبة السنة الثانية تتدهور حالته النفسية بصورة واضحة، وكانت والدته - وهي أستاذة جامعية - قد أرسلت مع صديق تطلب مني الاعتناء به لأنها تعمل في المملكة العربية السعودية هي ووالده، فكنت أستقبله في مكنتي وأحاول متابعتة دراسياً، فأحسست أنه متأثر نفسياً بغياب والديه، واتصلت بجده الذي يقيم معه، فقال لي: إنه لا يستطيع السيطرة عليه، ثم في الإجازة الصيفية زارني والداه في بيتي، وقد شرحت لهما خطورة الحالة، وطلبت من والده أن تعود والدته إلى مصر فلا بد أن يعود، فطلبت منه أن يعود كلاهما لأن حالة الولد خطيرة، ولما قال: إنه بحاجة إلى المال، لم أتمالك أعصابي ونهرته بشدة قائلاً: «ولذلك أهم أم المال؟ ولدك سيضيع»، واستغربت زوجتي من معاملتي لضيبي في بيتي بهذه الشدة، فأخبرتها أنني أحس أن الولد سيضيع منها فعلاً، ولم يستمعاً نصيحتي، وتم إدخال الولد مصحة نفسية، فهل كسب المال أهم من الحفاظ على الصحة النفسية لابنك أو ابنتك؟



وقد استشرت ظاهرة سفر المصريين إلى دول الخليج طلباً للرزق وزيادة الدخل، ورغم أنه غالباً ما يسافر الوالد فقط وتبقى الوالدة لرعاية الأولاد، إلا أن غياب الأب يؤثر تأثيراً سلبياً ليس على الأولاد فقط بل على زوجته كذلك، لأنه لا يعود لأسرته إلا شهراً في السنة، وقد أدت هذه الظاهرة إلى عدة أمراض اجتماعية منها انتشار المخدرات بين الشباب، والزواج العرفي، وأطفال الشوارع، وقد يسوء الأمر بالنسبة للبنات بالذات إذا تم التغرير بهن باسم الحب فيفقدن أعز ما يملكن، ثم ماذا عن الزوجة الشابة التي يغيب عنها زوجها 11 شهراً كل سنة؟ فهل المال أهم من أسرتك؟ وماذا يغني عنك المال إذا عدت فوجدت ابنك قد أدمن المخدرات أو وجدت ابنتك وقد تزوجت زواجاً عرفياً؟ المشكلة في هذه الحالة ليست انشغال الوالد بعمله، المشكلة هي غيابه تماماً عن أسرته أحد عشر شهراً في السنة، ولا تكفي الخطابات ولا حتى المكالمات التليفونية، وجود الوالد مهم جداً وبالذات في فترة مراهقة أبنائه حيث لا تستطيع الزوجة وحدها تقويم سلوكهم، ثم ماذا عن احتياجات الزوجة؟ التي قالت عنها أم المؤمنين حفصة - عندما سألتها أبوها - إنها لا تستطيع أن تتحمل غياب زوجها فوق أربعة أشهر.

3-4 عندما تتبدل البنية الأساسية يختل توازن كل شيء؛

إذا حددنا هدفنا بوضوح واعتبرنا أن الأسرة هي الأولوية الأولى لنا، فالنقطة التالية هي أخذ المناخ المضطرب الذي نحاول الملاحظة فيه في الاعتبار، هذا المناخ أثرت فيه التغيرات الكبيرة التي حدثت على مدى الخمسين عاماً الماضية، ويعرض كوفي هذه التغيرات التي حدثت في المجتمع الأمريكي في عدة مجالات: الثقافة والقانون والاقتصاد والتقنية، ورغم أن المجتمع المصري مختلف عن المجتمع الأمريكي كثيراً إلا أن اتجاه هذه التغيرات يسير في الاتجاه نفسه، وكما قلنا سابقاً فإن الأمم المتحدة تحاول تصدير الخيبة التي وصلت إليها الأسرة في المجتمعات الغربية إلينا عبر ما سموه بميثاق الأسرة، ولذا سنعرض التغيرات التي حدثت في المجتمع الأمريكي؛ حتى نقاوم حدوثها في مجتمعنا، رغم أن السياسات الحكومية والليبرالية والمجلس القومي للمرأة تحاول دفع أسرتنا في هذا الاتجاه.



3-4-1 الثقافة السائدة في المجتمع الآن:

في فترة الخمسينيات كان الطفل الأمريكي يشاهد التلفزيون قليلاً أو لا يشاهده على الإطلاق، وكان ما يشاهده في الأفلام والمسلسلات هو الأسرة العادية، أبوان يتعاملان مع بعضهما البعض باحترام متبادل، أما سنة 1990 فأصبح الطفل يشاهد التلفزيون سبع ساعات يومياً في المتوسط، ومع قرب انتهاء فترة تعليمه المدرسي يكون قد شاهد 8000 جريمة قتل و100000 حادث عنف، وفي الوقت نفسه يقضي مع أبيه في المتوسط خمس دقائق في اليوم وعشرين دقيقة مع أمه. تصور سبع ساعات للتلفزيون وخمس دقائق للأب، أمر لا يصدق عقل، وأصبح طفل اليوم يحظى بفرصة أكبر بكثير للاطلاع على شرائط الفيديو، بعضها به مواد إباحية أو أعمال عنف زائد، وأصبح الخوف على المراهق في المدرسة الثانوية من الانحراف المؤدي إلى تناول العقاقير والاغتصاب والانتحار له ما يبرره كما عرضنا في الفصل الثاني.

وبالإضافة إلى كل هذه التأثيرات فقد أصبحت الأسر الأمريكية تكتسب إيقاع عالم الأعمال، تشير عالمة الاجتماع هوتيلد في كتابها رباط الزمن، أن كثيراً من الناس استبدلوا المنزل بالعمل والعكس، فقد أصبح المنزل بالنسبة لهم مكاناً يسبقون فيه الزمن، حيث يمضي أفراد الأسرة أقل من 15 دقيقة في تناول الطعام قبل الانتقال إلى أعمالهم، ثم يتناولون العشاء منفردين كل حسب مواعيده، لأن المايكرويف سهّل عملية تجهيز طعام شبه مطهي في دقائق، ثم يجتمعون في المساء لمدة نصف ساعة في المتوسط قبل النوم من باب عدم إضاعة الوقت هباء، أما في العمل فيكون العكس، فلديهم الفرصة للتفاعل والتفاهم مع من حولهم بهدوء أثناء فترة الغداء التي تمتد ساعة كاملة.

ووجدت عالمة المذكورة أن بيئة العمل أصبحت هي الملاذ وهي المرفأ الآمن الذي يمارس فيه الأفراد أنشطتهم الاجتماعية؛ لأن المنزل لم يعد هو السكن المفروض أن يكون، ونتيجة لذلك يميل بعض الأمريكيين إلى إطالة ساعات عملهم؛ لأنهم يستمتعون ببيئة العمل أكثر من استمتاعهم بمنزلهم وأسرهم. وتقول عالمة الاجتماع: «في هذا النموذج الجديد من حياة الأسرة والعمل يهرب الأب المتعب من الخلافات الأسرية ومن الأعباء المنزلية إلى حياة ملؤها النظام والانسجام والبهجة، وهي بيئة العمل»، وهناك عوامل أخرى تشجع الفرد على



الاندماج في العمل أكثر، فهناك المكافآت بكل أنواعها، بما في ذلك التعويض عن الوقت الإضافي والترقية للإنجاز غير العادي، وهي من الأمور التي تزكى شعور المرء بقيمته وتجعله يحس بالإنجاز والتقدير، ويضرب بأقصى جناحيه لكي يتعد عن أي شيء من شأنه أن يضيع هذه المميزات، وبالتأكيد فإن هذا الشيء هو الأسرة والمنزل، تلك المغريات تخلق رؤية جديدة في بعض الشركات، مدينة فاضلة مثالية دافئة يجتمع فيها الرضا عن الإنجاز مع التعويض المادي عن العمل الإضافي مع التبرير بالانشغال بالمواعيد وجدول الأعمال المزدحم كعذر عن الانشغال عما هو أهم وهو: زوجته وأولاده.

أما على الجانب الآخر فلا أحد يثني عليك إذا أدت دورك كأب أو كأم، ولا أحد يدفع لك كي تقوم بهذا الدور مهما قضيت من وقت مع أولادك، ولا تحصل على مكافأة أو هبة لقيامك به؛ لأن هذا هو دورك الطبيعي، والآن - في هذه الأيام - لا أحد سوف يساندك في قيامك به، لأن أمك أو أم زوجتك تعمل هي الأخرى أو تسكن في مدينة أخرى، كل المكافأة التي ستحصل عليها كأب هي الشعور بالرضا الذي ينبع من قيامك بدور متميز في التأثير بالإيجاب على حياة من تحب، وبأسلوب لا يمكن لأحد آخر أن يقوم به، وطبعاً سعادتك عندما يكبر أولادك ويكون منهم الابن البار الذي يعترف بفضلك.

أما في بلادنا، فالحمد لله، لم يصل مكان العمل إلى هذه البيئة المثالية، ولكن لو كان البيت نكدًا مستمرًا فإن الرجل سيفضل مكان عمله على تواجده في المنزل، أو يفضل الجلوس على المقهى، ولكن موضوع التلفاز أصبح مشكلة كبيرة، فليس الطفل فقط هو من يشاهد التلفزيون ساعات طويلة، وإنما الأم أيضًا، والمسلسلات أصبحت آفة كبيرة تمنع تواصل الزوجين حتى لو بقى الزوج في المنزل، وضيق المساكن أصبح يسبب صدامًا للزوج العائد من عمله متعبًا، إذا حاول الأولاد اللعب أو حتى الكلام مع بعضهم؛ ولذا أصبح يهرب إلى المقهى حيث يتجاذب الحديث مع أصدقائه، ويشرب الشيشة ولا يسبب أولاده صدامًا في رأسه، ففي الحالتين يهرب الرجال من المنزل، في أمريكا إلى العمل وفي مصر إلى المقهى، ولكن الزوجة الفطنة لو تمكنت من جعل بيتها سكنًا، ولو عودت أطفالها على احترام وجود الأب وعدم إزعاجه بالضوضاء، والاكتفاء بالألعاب الهادئة كالرسم أو بناء البيوت البلاستيكية، لو



تمكنت من ذلك مع تزنيها لزوجها وإتقانها لبعض ألوان الطعام الذي يجبه، بحيث يعود من عمله فيجد المنزل مرتباً هادئاً، لما رضي بغير المنزل بديلاً.

3-4-2 القوانين السائدة في المجتمع الآن:

في الغرب أصبح من المعتاد أن يعيش شاب وفتاة متحابين معاً قبل الزواج، بحجة أنها يجربان العيش معاً قبل الإقدام على خطوة مهمة كالزواج، والقوانين التي تمنح الزوجة نصف ثروة الزوج التي كونها بعد الزواج، هذان العاملان جعلاً كثيراً من الرجال يفضلون استمرار الوضع على ما هو عليه وعدم الإقدام على خطوة الزواج، المرأة هي التي تريد الأسرة - بفطرتها - ولكن الرجل يريد المتعة دون مسئولية، وقديماً عرّفت المحكمة العليا بالولايات المتحدة الزواج بأنه «أساس المجتمع وبدونه لن تكون هناك حضارة ولا تقدم»، وقديماً كان الزواج التزاماً وميثاقاً يجمع بين ثلاثة: الرجل والمرأة والمجتمع، وكان الله رابعهم.

يقول المحاضر (وينديل ييري): «إذا اقتصرنا نظرة المحبين على أنفسهم فقط فلن يكون هناك زواج، لا بد أن يفكرا في الغير، من يتزوجون يتعهدون للمجتمع بمثل ما يتعهدون به لأنفسهم؛ ولهذا كان المجتمع يتجمع حولهم ويساندهم ويسعد بزواجهم ويتمنى لهم الخير والسعادة، ولم ذلك؟ لأن المجتمع كان يدرك كم هو ضروري ومفرح هذا الارتباط، وكان المتزوجون يعنون ما يقولون عندما يتعهد كل منهم للآخر بأن لا شيء سيفرق بينهم، إلا الموت، فزواج المحبين يجمع بينهما وبين أسرتهما وأبنائهما ومجتمعها، إنه الرباط الأساسي الذي بدونه لا يتكون مجتمع، والثقة هي لبنته الضرورية»، أما زواج اليوم - يقول كوفي: فلم يعد ميثاقاً ولا التزاماً، وإنما أصبح مجرد عقد بين اثنين بالغين .. عقد يراه البعض غير ضروري، عقد يسهل الإخلال به عندما لا تكون هناك حاجة إليه أو عند أبسط خلاف، عقد يتم رغم علم الموقعين عليه بأن إمكانية فشله كبيرة - بنسبة تصل إلى 50% في أمريكا - وقد توقف النظام القانوني في الغرب عن مسانדתه، بل إنه أصبح يثبط عزم المقبلين عليه بتقسيم ثروة الزوج عند وقوع الطلاق، وبوقوف البوليس مع الشاب المراهق إذا طلب البوليس لأبيه الذي يمنعه من أصدقاء السوء أو يمنعه من تعاطي المخدرات في المنزل، فأصبح القانون يفرض جزاءات على الممارسات الأبوية المسئولة، مثل ضرب الأطفال أو حتى منعهم بالقوة



من المخدرات، ويعتبر أن الزوج الذي يأتي زوجته لأنه يحتاج إلى معاشرتها إذا كان دون رضاها يعتبره قام باغتصابها!!

ونتيجة لذلك - كما يقول لورانس ستون المؤرخ العائلي بجامعة بريستون - فإن معدل الانهيارات الزوجية في الغرب منذ ستينيات القرن العشرين لا يوجد له نظير من قبل في التاريخ، ولا يشبهه شيء على الإطلاق على مدى الألفي عام الماضية، «ولو أهدرت قدسية الزواج فسنكون قد مهدنا الطريق لانتشار أوبئة الطلاق وإهمال الأبناء ودمار المجتمع، ثم الوحدة والانعزال».

والحمد لله أننا لم نصل إلى هذا الوضع بعد، ولكن ازدياد معدلات الطلاق في الثلاثين سنة الأخيرة تدل أننا على الدرب سائرون، وأصبح الزواج الحديث ينتهي بالطلاق في 25٪ من الحالات لأسباب واهية، كما تقول إحصاءات المركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية، ولا ترضى الفتيات الآن بما كانت تعتبره أمها قسمتها ونصيبتها، وإنما يطلبن الطلاق في أول خمس سنوات لأسباب ما كان يسمح فيها بالطلاق من أربعين سنة، حتى لو كان هناك أولاد، ولذلك لا بد أن نقاوم بشدة كل الأفكار والأفلام والمسلسلات التي تدعو إلى عدم مساندة مؤسسة الزواج وتدميرها، عن طريق نشر ثقافة الخيانة الزوجية والطلاق على أنها هما نمط الحياة العادي في المسلسلات والأفلام، وبالعكس لا بد من نشر ثقافة (أن أبغض الحلال عند الله الطلاق)، وأن الزواج هو سنة مؤكدة عن الرسول ﷺ كما قال: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري ومسلم)، ولا بد أن يسهل أولو الأمر الزواج ليكون أسهل شيء، ويصعبوا الزنا ليكون أصعب شيء، وهو عكس الوضع الحالي للأسف، ولا بد أن يقف المجتمع كله مسانداً لشابيين يريدان العفاف بالزواج، سواء مساندة مادية أو معنوية.

3-4-3 الحالة الاقتصادية في المجتمع الآن:

منذ عام 1950 ارتفع متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة الأمريكية عشرة أضعاف، غير أن تكلفة المنزل المتوسط تضاعفت هي الأخرى خمس عشرة مرة، وارتفعت نسبة التضخم 600٪، ما دفع الآباء أكثر فأكثر خارج البيت بحثاً عن المال، خاصة وأن ثقافة المجتمع أصبحت ثقافة استهلاكية، وأصبحت وسائل الإعلام كلها تركز على الحصول



على أشياء أكثر، وسعيًا وراء المال الذي يفي بالاحتياجات الأساسية وكذلك الكماليات، وللحفاظ على مستوى المعيشة نفسه الذي كان يعيش فيه الزوجان قبل الزواج - وهذا صعب جدًا - انخفضت نسبة الأسر التي يعمل فيها أحد الوالدين ويبقى الآخر في المنزل من الثلاثين عام 1940 إلى 17٪ عام 1994، ويعيش الآن في الولايات المتحدة 14.6 مليون طفل عند حد الفقر أو أقل منه، 9٪ منهم في أسر بها عائل واحد (أحد الأبوين).

وعندما تولت الحكومة رعاية المسنين والمشردين كرد فعل على فترة الكساد العظيم في نهاية العشرينيات أعيد تحديد مفهوم البنية الاقتصادية للعالم الذي نعيش فيه، وانقطعت الرابطة الاقتصادية بين الأجيال داخل الأسرة، فالاقتصاد معني بالبقاء، وعندما ينعدم الشعور بالمسؤولية الاقتصادية بين الأجيال ينعكس ذلك على الروابط والصلات التي تجمعهم، فلم يعد الأبناء يحسون بمسئولياتهم المادية عن الآباء والأمهات فوق الستين، وأصبحوا يعتبرونها مسؤولية الدولة، ونتيجة لذلك أصبح التصرف العادي هو إرسال الآباء والأمهات المسنين إلى دور رعاية المسنين، وانكشمت أغلب الأسر إلى ما يعرف بالأسر النووية، أي الأب والأم وأولادهما فقط، وحتى هذا الشكل الأسري لم يسلم من الخطر، فالأبناء يغادرون بمجرد التحاقهم بالجامعة، وقد يغادر الأب أو الأم أيضًا لأسباب تافهة.

يقول كوفي: نحن نعيش اليوم في عالم يقدر قيم الحرية الفردية والاستقلال الذاتي أكثر من تقديره لقيم تحمل المسؤولية والتعاون والالتزام، نعيش في عالم مفعم بالحركة والتغيير، حيث أصبحت وسائل الترفيه - خاصة التلفاز - تشجع على العزلة الاجتماعية، وأصبحت المسجلات الصغيرة جدًا (MP4) في جيوب المراهقين وسماعاتها في آذانهم بحيث يتواجدون بأجسامهم فقط مع أسرهم، ولكنهم لا يسمعون ما يقال حولهم، لقد أصابت الشروخ حياتنا الاجتماعية، وتباعدت المسافات بين الأفراد داخل الأسرة، وأصبح الهروب من المسؤولية ومن محاسبة النفس أمرًا شائعًا في كل مكان.

مرة ثانية، فالحمد لله على الإسلام، لأنه المرجعية التي تدعم الأسرة بقوة، وقد وقفت هذه المرجعية بقوة ضد كل علاقة بين الجنسين خارج مؤسسة الزواج، تمنع كل خطوات الشيطان المؤدية للزنا - كالنظر والخلوة - وتحث على كل الخطوات المؤدية للعفة، حيث يقول الرسول ﷺ: «التمسوا الرزق بالنكاح» (رواه الثعلبي)، ويدعو الشباب لسرعة الزواج



طالما استطاعوا الباءة، ويقول ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (رواه البخاري ومسلم).

وهذان الحديثان أمر صريح بالزواج لمن يستطع نفقته، وحث للشباب الذين ليس لديهم النفقة أن ينووا النكاح حتى يرزقهم الله القدرة المالية، ثم يحرص الإسلام على الزواج حرصاً شديداً، ويدعم مؤسسة الأسرة دعماً هائلاً، ومن شاء فليراجع حادثة الإفك في سورة النور، ويجد الإسلام من تأثير الحالة الاقتصادية عندما يقول الرسول عن أفضل الزوجات: «أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا» (رواه مسلم)، وقد زوج أحد الصحابة بخاتم من حديد، والرسول الكريم ﷺ يدعو للبساطة عند الزواج بحيث إن فقر الرجل لا يمنعه من أن يتزوج، ثم يدعو للبساطة بعد الزواج بحيث لا يحتاج الزوج للتواجد خارج المنزل أكثر فأكثر بحجة البحث عن المال، فقال ﷺ: «من بات آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا» (رواه البخاري)، فتأمل، عنده قوت يومه، وليس قوت الأسبوع، فهل هناك أبسط من ذلك أو أيسر، وكانت الزوجة توصى زوجها عند خروجه للعمل: «اتق الله فينا ولا تطعمنا إلا من حلال فإننا نصبر على شدة الجوع ولا نصبر على نار جهنم»، وكان بيت الرسول الكريم ﷺ - وهو أكرم خلق الله على الله - لا توقد فيه نار بالشهرين والثلاثة، فلما سأل السائل زوجته السيدة عائشة - رضي الله عنها - : فماذا كان طعامكم يا أمهات؟ قالت: الأسودان - التمر والماء. فتأمل، الرسول الكريم يعيش الشهرين والثلاثة على التمر والماء، وينام على الحصير والليف الذي أثر في جنبه الشريف، فهل بعد هذا حجة لمن لم يتزوج، يقول الله تعالى أمراً كل المسلمين: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: 32] أي زوجوا كل من لا زوج له/ لها، سواء لم يسبق له/ لها الزواج أو أرملة أو مطلقة، حتى لا يبقى نساء دون زواج فيساعد ذلك على انتشار الرذيلة.

3-4-4 التقنية الحديثة والإعلام في المجتمع:

لقد سببت التقنية الحديثة تغييرات كبيرة في كل بعد من أبعاد الحياة الأسرية، فإضافة إلى تنامي القدرة على اتصال أفراد الأسرة بكل ركن من أركان العالم، وسرعة الحصول على المعلومات والصور وغيرها، فإن تقنية اليوم تمكن أفراد الأسرة من الوصول - على الفور وبكل الإمكانيات المرئية المتاحة دون مرور على رقيب - إلى مجال حافل بالصور المؤثرة، بما في



ذلك الصور الإباحية ومشاهد العنف وسفك الدماء، كل ذلك مصحوبًا بالإعلان عن كل ما يخطر وما لا يخطر بالبال؛ لذا تجعلنا هذه التقنية تحت عبء مادي هائل، وفي الوقت نفسه تضغط على أعصابنا بمشاهد العنف، وتستهلك أوقاتًا كثيرة جدًا من أوقاتنا في المحادثة - وبالذات للنساء والفتيات، ولقد أدت الإعلانات والنمط الاستهلاكي للحضارة الغربية إلى ثورة في آمال البشر وتطلعاتهم، وأدت مشاهد العنف إلى زيادة عنف الشباب في الشوارع والمدارس، وصار الشاب في أمريكا يفتح نيران بندقيته الآلية على تلاميذ ومدرسي مدرسته فيقتل العشرات (حادثة مدرسة كلورادو)، وضاعفت التقنية من قدرتنا على الاتصال بالآخرين أضعافًا مضاعفة، فصارت تستهلك أغلب أوقات الشبان والفتيات، وأدى ذلك إلى توطيد علاقتنا مع أناس من شتى بقاع الأرض، لكنها أيضًا تفرق بين أفراد الأسرة؛ لأنها تمنعهم من التواصل مع بعضهم البعض كأعضاء في أسرة واحدة تعيش تحت سقف واحد.

ولكي تحل مشكلة التقنية الحديثة استفتي قلبك، ماذا يقول لك عن تأثير التلفاز والنت عليك وعلى أبنائك؟ هل مشاهدتك للتلفاز تجعلك أكثر عطفًا وودًا أو أكثر حُبًا؟ هل تساعدك على بناء علاقات قوية داخل منزلك؟ أم هل تجعلك تشعر بالخدر والتعب والاستسلام للجلوس أمام الشاشة الصغيرة دون أن تكلم زوجتك وأبنائك؟

ثم نأتي للنت، هل يجلس أولادك - وبالذات البنات - على النت ساعات طويلة ولا يساعدن أمهن في عمل المنزل؟ ولا يعتنين بأبيهن عندما يعود من عمله مرهقًا، ولا يتواصلن معًا ولا مع الوالدين، وإنما يتواصلن مع أصدقائهن وصديقاتهن في مواقع المحادثة على الشبكة، لقد قطعت هذه الشبكة العنكبوتية أواصر الاتصال داخل الأسرة، رغم أن الشبكة تصل ولا تقطع!! واستبدل الأبناء بأواصر الأسرة أواصر اتصال بأشخاص خارجيين يشتركون معهم في المشارب والاهتمامات.

وعندما نفكر في تأثير الإعلام على أسرنا - بعد ثورة السماوات المفتوحة - لا بد أن ندرك أنه يستطيع فعليًا التحكم في ثقافة الأسرة، وحاليا يوجد في مصر - عبر الأقمار الصناعية المختلفة - ما لا يقل عن أربعمئة قناة فضائية تؤثر في عقولنا وعقول زوجاتنا وأبنائنا، وعندما نراجع تأثير الإعلام من قصص رومانسية لحب خارج إطار الزواج، ومسلسلات تنشر الخلاعة والمجون والعلاقات الخارجة على القيم والأعراف الإسلامية، ومسلسلات تنشر



العنف والمعارك الدموية، وأخبار تذيع أعداد القتلى بالعشرات يومياً في سوريا والعراق وفي جنوب شرق آسيا وفي الدول التي حدثت بها صراعات مسلحة، لا بد أن نشعر برغبة في إبداء رفضنا لذلك كله.

ما الذي يحدث لنا؟ لقد صرنا نعتقد أن ما تأتي به نشرة الأخبار والأفلام هو نمط الحياة الطبيعي، والأطفال خاصة يصدقون ذلك، لقد أصبحنا نعتقد أن قتل الناس بعضهم بعضاً أصبح شيئاً عادياً، يقول منشئ المحطة التلفزيونية ذائعة الصيت (CNN) تيد تيرنر: إن الصورة لا تكذب، لذا يعتمد في أخباره على الصور كثيراً، صحيح أن الصورة لا تكذب، ولكنها قد تكون خادعة إذا نقلت جزءاً واحداً من الصورة الكلية؛ لذا كان الإلحاح دائماً على جانب واحد دون الجوانب الأخرى، بمعنى آخر أن الإعلام لو فقد الحيادية وتبنى وجهة نظر معينة فإنه يستطيع تأليب الرأي العام على اتجاه معين، ويستطيع نشر الكراهية بين أبناء الشعب الواحد، وباستعارة تعبير الصحفي المعروف فهمي هويدي: يستطيع شيطنة فصيل من الناس، بحيث ينسب لهم كل الرذائل والقتل وسفك الدماء، وهذا هو ما حدث بالضبط في مصر بعد انقلاب يوليو 2013؛ حيث أغلقت سلطات الانقلاب كل القنوات الإسلامية، وصارت تضيّق على المحطات المحايدة حتى يتسنى لها إصااق كل نقيصة بالإخوان المسلمين، وتآليب فئات الشعب عليهم، فهاجموا مقرّاتهم وحرقوها دون أن يتبينوا وجه الحقيقة فيما يدعيه الإعلام.

صحيح أن التلفاز والنت يزوداننا بالكثير من المعلومات المفيدة ويقدمان التسلية والمتعة، لكن في واقع الأمر يبدو كما لو كان التلفاز يدس لأسرنا السم في العسل - وهذا نص كلام ستيفن كوفي: إن التلوث السمعي والبصري عندما يحدث بمعدل بطيء وتدرجي يجعلنا نفقد الإحساس بقبحه، كما يفقدنا الإحساس بالنواحي الجميلة التي نتخلى عنها من أجله، كما حدث في مشكلة النظافة في مصر، عندما انتشرت القذارة في شوارعنا بالتدريج وأهملنا حدائقنا، وصار الناس لا يباليون بالقاء القاذورات في الشارع طالما أنها خارج منازلهم، واعتدنا على منظر القمامة في الشوارع، وأصبحنا لا ندرك ما فقدناه إلا عندما يأتي أبناء المصريين العاملين بالخارج من البلاد التي يعمل بها آباؤهم، أو عندما تنشر الصحافة العالمية تقريراً عن قذارة عاصمة كانت من أجل خمس عواصم في العالم قبل 1952.



وجزء كبير من الفوائد المقترنة بالتلفاز أو النت يصبح هباءً إذا قايننا به وقتاً كان من الممكن أن نكرّسه لأفراد أسرنا، نتعلم معاً ونعمل ونشارك ونعمق الحب بيننا، ففي أحد استطلاعات الرأي الذي أجرته جريدة أمريكية شهيرة شعر 90% من الأمريكيين المشاركين في الاستطلاع أن الشعب الأمريكي ينجرف إلى هاوية الانحدار الأخلاقي، وقال 62% منهم أنهم يشعرون أن التلفاز أصبح عدواً لقيمهم الأخلاقية والروحية، وكل هذا البث يصل إلينا عبر الأقمار الصناعية من البلاد الغربية فيدمر البقية الباقية من قيمنا الدينية في بلد الأزهر الشريف، لكن لماذا يحظى التلفاز بنسبة مشاهدة عالية؟

مع ارتفاع مؤشرات الجريمة وإدمان المخدرات وأعمال العنف - في كل من أمريكا ومصر - لا بد أن لا ننسى أن أهم مؤشر على الإطلاق في أي مجتمع هو مدى الالتزام بحسن تربية الأبناء الذين هم أهم الناس في حياتنا، والأطفال لا يتعلمون قيم الحياة من خلال (توم وجيري أو باور رينجرز)، لكنهم يتعلمونها من أفراد يجوبونهم ويتحدثون ويعملون معهم وينصتون إليهم ويقراءون لهم أو يقصون عليهم القصص المليئة بالحكمة والقيم الرفيعة، ويمضون وقتاً سعيداً معهم، عندما يشعر الأطفال بالحب - الحب الحقيقي - فإنهم يترعرعون أصحاء وينجحون في تكوين مجتمع فاضل، ويزيد على ذلك في بلادنا تنشئة الأولاد على القيم الدينية والتوجهات الربانية والنبوية التي تحفظ قيم المجتمع وترتقي بذوق العام.

فكر في الإجابة عن هذا السؤال: ما هي أكثر أوقات أسرتك رسوخاً في ذهن أفرادها؟ هل هي الأوقات التي يقضونها في الفرجة على المسلسلات أم الأوقات الحميمة التي يقضونها معك ومع أمهاتهم كأسرة، افترض أنك ترقد على فراش الموت، هل ستحس بالندم على كل الأوقات التي ضيعتها وضعيتها أسرتك في الفرجة على أفلام ومسلسلات وبرامج حوارية لا تعمل إلا على إفساد الأخلاق وبث روح الكراهية؟! في كتاب «وقت للحياة» يقول المؤلفان: إن المواطن الأمريكي يقضي في المتوسط خمس عشرة ساعة أسبوعياً من ساعات فراغه الأربعين في مشاهدة التلفاز، ولذا يقول المؤلفان: إن الأمريكيين قد لا يكونون مشغولين بالعمل كما يتراءى لهم دائماً، وأعتقد أن متوسط مشاهدة التلفزيون في مصر يزيد على الثلاثين ساعة أسبوعياً، وتقول بيريل فيرجسون في كتابها الشهير «المؤامرة» قبل اختيار أدواتنا



وأجهزتنا وتقنياتنا لا بد أن نختار أولاً أحلامنا وقيمنا، لأن هناك تقنيات تساعدنا على تحقيقها أو أخرى تجعلنا نبتعد عنها.

والخلاصة: أنه أصبح من الواضح أن التبدل والتحول في البنية الأساسية في المجتمع قد تسبب في خروج الأمور عن نصابها، ففي الغرب تم تعديل أوقات العمل وتعديل الشركات التجارية وإعادة هيكلتها من أجل زيادة التنافس وزيادة الأرباح دون الاهتمام بالإنسان وسعادته وأسرته، كما أن عولمة الأسواق أصبحت تهدد بقاء النشاط الاقتصادي في كثير من الدول حتى العظمى منها، وأصبحت تهدد المستشفيات والرعاية الصحية والتعليم نظراً لضعف إجمالي الناتج القومي، نتيجة لغزو المنتجات الصينية والآسيوية للسوق وتسببها في توقف كثير من الأنشطة الصناعية، إن كل مؤسسة وبالذات الأسرة تأثرت بهذه التغييرات أكثر من أي وقت مضى، وكما يقول ستانلي ديفيز خبير التدريب على القيادة: «عندما تتحول البنية الأساسية يخلت توازن كل شيء سواها، هذه التغييرات في البنية الأساسية تمثل حركة ترس كبير يحرك بدوره تروساً أصغر ثم تروساً أصغر أخرى، بحيث يترك بقية التروس في حالة احتكاك مستمر»، لقد خرجت الأمور عن نصابها ولكن لا بد أن تعود إلى مكانها من جديد، والكثير من الناس لا يدركون ما يدور حولهم، حتى وإن أدركوه ورأوا ما يسببه لهم من قلق ومعاناة، فهم لا يعرفون ماذا يمكنهم فعله حيال ذلك؛ ولذلك لا بد من جهد جماعي، لا بد أن يتكاتف كل المؤمنين بدور الأسرة في المنظمات غير الحكومية التي تهتم بعودة مؤسسة الأسرة إلى دورها وتهتم بدعم الأسرة تعليمياً ومجتمعياً بالعودة إلى قيم الإسلام التي تركز على مسئولية الأبوين تجاه رعاية أبنائهما، ولا بد من الحفاظ على هذه القيم رغم كل التغييرات التي حدثت في البنية الأساسية، ولا بد من هذا الجهد الجماعي للحد من سيطرة وتأثير التلفاز والنت ولا بد من عودة التربية إلى المدارس، ولا بد من عودة القدوة والتركيز إعلامياً على العلماء والنهادج الفاضلة في المجتمع بدلاً من التركيز على الراقصات ولاعبي الكرة.

3-5 قفزة من أرجوحة عالية بدون شبكة أمان:

يقول كوفي: إن هذا التبدل في البنية الأساسية يؤثر علينا تأثيراً عميقاً، ويؤثر في بيوتنا وأسرنا، ومحاولة تنشئة أسرة هذه الأيام بنجاح أصبح كمحاولة القيام بقفزة من أرجوحة



عالية، ففزة تتطلب قدرًا كبيرًا من المهارة والتعاون المتبادل بين اللاعبين، لكن للأسف بدون شبكة أمان، لقد كانت شبكة الأمان موجودة منذ أقل من نصف قرن، كانت هناك قوانين تساعد الأسرة، تروج لها وسائل الإعلام وتتبنى كل ما يدعم الأسرة، لأنها تؤمن بأهميتها كلبنة أساسية في مجتمع سليم، وكان المجتمع يقدر دور الأسرة ويدعمه ويتمسك بها، وتسانده الأسرة في ذلك، لكن هذه الشراكة لم تعد موجودة، فقد قضت عليها الثقافة السائدة والأوضاع الاقتصادية والقوانين، وعملت التقنية والإعلام على تفكك الأسرة وتحللها، وساعد كل هذا -خلال العقود الثلاثة الماضية- على إيجاد مناخ أقل مساندة لأسرة قوية مستقرة، أقل بكثير، وقد حدث كل هذا ببطء وبالتدريج، لدرجة أن الكثيرين لا يدركون حدوثه، فما يحدث مع كل المؤثرات التي من حولنا هو ما يحدث مع الضفدع إذا وضعته في إناء، ثم وضعت الإناء على نار هادئة، إذ كلما ارتفعت درجة حرارة الماء تأقلم الضفدع معها حتى تغلي ويموت الضفدع، فهذا ما حدث لنا مع كل هذه التغيرات حولنا، اعتدنا عليها، ثم تأقلمنا مع وجودها، رغم أنها تقتلنا فعليًا وتقتل أسرتنا، إنها عملية تخدير وقتل تدريجية.

وهذا ما حدث لنا عندما نخلينا عن مبادئنا وقيمنا في مقابل قيم اقتصاد السوق التي حاول النظام فرضها علينا، إن القوى الثقافية تغير الحس الأخلاقي بالصواب والخطأ، حتى أننا أصبحنا نخلط بين القيم الاجتماعية والمبادئ الفاضلة وبين المبادئ الاستهلاكية، وفقدنا القدرة على التمييز بين الغث والسمين، فيصبح التطاول على الآباء والأمهات حرية، ويصبح تأديب الأولاد بالضرب رجعية، وتسبب القوانين لتقييد سلطة الأب والأم في تربية أبنائهما، ويصبح التمسك بالقيم الإسلامية تخلفًا.

وإذا رجعنا إلى تشبيه الطائفة يمكننا القول: إننا كطاقم قيادة الطائفة في هذه المرحلة -نعاني الدوار والغثيان، وهذا ما يحدث أحيانًا عندما تشتد الأنواء وتتقاذف الطائفة الرياح العاتية إذا دخلت في عاصفة استوائية مثلًا، وفي هذه الحالة لن يتمكن الطاقم من ملاحظة مؤشرات الأجهزة الملاحة الموجودة أمامهم، وقد يلاحظونها ولكنهم لا يستطيعون الاستجابة لها بسبب عدم استجابة أعصاب العضلات والمفاصل لديهم، أو بسبب أعضاء التوازن الصغيرة للغاية في الأذن الداخلية، فلا يعودون قادرين على التمييز هل الطائفة في صعود أم هبوط؟



إن آلات الأجهزة الملاحية وآلات الرصد تعتمد في عملها على أن تكون موجهة إلى اتجاه صحيح، وألا يحدث تشويش شديد عليها، ولكن مع الدوران والغثيان، ومع التشويش على الأجهزة المساحية، تظهر التأويلات الخاطئة أو المتناقضة كنتيجة حتمية، وهكذا ونتيجة لهذا الاضطراب في الحواس وفي الأجهزة نشعر وكأننا في دوامة، وكذلك الحياة، فعندما نواجه مؤثرًا عاتيًا مثل نمط اجتماعي جديد قوي جدًا، أو شخصية عامة فنية أو كروية لها تأثير هائل على الشباب، أو حركة اجتماعية تُفسد بدعوى تحرير المرأة، نعاني من هذا الخلل في أرواحنا وفي ضمائرنا، وتتوه بوصلتنا الأخلاقية حتى دون أن ندرك ذلك، ولذلك كان دعاء الرسول الكريم ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه»، فلا بد من الرجوع إلى مرجعيتنا الإسلامية بحيث يرجع مؤشر البوصلة ليشير إلى الشمال، كما كان يفعل دائمًا، دون تأثر بالمجالات الكهربائية والمغناطيسية العنيفة التي تشوش عليه.

3-6 أصلح البوصلة:

يقول كوفي: إن إصلاح البوصلة يعتمد على خمسة أمور، ولكي يشرحها في محاضراته فإنه يتبع أسلوب التدرج، فهو يقف أمام جمهوره ويطلب منهم أن يغمضوا أعينهم ثم يقول: «الآن، ودون أن يجلس أحدكم النظر إلى الآخر أشيروا إلى اتجاه الشمال»، ثم يطلب منهم أن يفتحوا أعينهم ويروا إلى أين يشير كل منهم، وفي هذه اللحظة تلعو الضحكات، لأنهم يكتشفون أن كل واحد منهم قد أشار إلى جهة مختلفة عن الآخر، بما في ذلك الذين أشاروا إلى أعلى، بعد ذلك يخطر لهم بوصلة كبيرة ويريهم مؤشر الشمال فيها، ويشرح لهم أن هذا الاتجاه لا يتغير مهما أدرت البوصلة، لأنه يمثل قوة مغناطيسية طبيعية موجودة على الأرض، وعادة ما يستخدم هذا التوضيح لي طرح النقطة الأولى، وهي: أنه كما أن هناك شمالًا ثابتًا - حقيقة ثابتة مستقرة خارج أنفسنا لا تتغير أبداً - فكذلك هناك قوانين وسنن ومبادئ لا تتغير مطلقًا، هذه المبادئ هي التي تحكم السلوك ونتائجه في النهاية، ومن هذه النقطة في المحاضرة يستعير تعبير (الشمال الثابت) كناية عن المبادئ أو السنن الكونية، ثم ينتقل بعد ذلك لتوضيح الفرق بين المبادئ والسلوك، فيضع البوصلة على جهاز تكبير حتى يرى الجمهور مؤشر الشمال، ثم يقول: إذا أردت التوجه للشرق أدر البوصلة 90 درجة، فيصير مؤشر الحركة يشير إلى الشرق ولكن يبقى دائمًا مؤشر الشمال يشير إليه، ويوضح لهم أن هذه كيفية تحديد اتجاه السفر،



ويمكن اقتباس هذا كتعبير بجدوى ما يفعله الناس، أو بعبارة أخرى بجدوى سلوكهم الذي ينبع من قيمهم الأساسية (وما يعتقدون في أهميته)، فإذا كان التوجه إلى الشرق أمرًا مهمًا بالنسبة لهم فسوف يضعون قيمة كبيرة له، وهكذا فسيتصرفون طبقًا لهذه القيمة، وبذلك يتحركون في أي اتجاه بناءً على رغبتهم وإرادتهم، لكن لا بد أن يعرفوا أن مؤشر الشمال الثابت لا يخضع لرغبتهم وإرادتهم، وهكذا يخرج بالنقطة الثانية، وهي أن هناك فرقًا بين المبادئ (أو الشمال الثابت) وبين سلوكنا (أو اتجاه السفر).

هذا التوضيح يمكنه من عرض النقطة الثالثة، وهي: أن هناك فرق بين الأنظمة الكونية (المبنية على المبادئ والسنن الثابتة) وبين الأنظمة الاجتماعية التي يضعها الناس بأهوائهم المبنية على القيم المستحدثة، وللتوضيح يطرح على الجمهور سؤالاً: كم واحدًا منكم لجأ إلى أسلوب الاستعداد للامتحانات في اللحظات الأخيرة؟ فيرفع معظم الحاضرين أيديهم، ثم يعاود السؤال مرة أخرى: كم منكم أفلح معه هذا الأسلوب؟ ونفس الأيدي تقريبًا تعاود الارتفاع، أي بعبارة أخرى نجح أسلوب حشو المعلومات في الرأس في لحظات ما قبل الامتحان، ويسأل مرة أخرى: كم منكم عمل في مزرعة؟ عادة لا يرتفع إلا 10٪ من الأيدي، فيسألهم: كم منكم استخدم نفس الأسلوب في المزرعة؟ - أي زراعة البذور قبل الحصاد مباشرة - عندئذ تتعالى الضحكات دائمًا، لأن الناس يدركون على الفور أنه لا يمكن استخدام أسلوب الاستعداد في آخر لحظة في الزراعة، لا تستطيع أن تهمل بذر البذور في الربيع والصيف ثم تذرهما في آخر لحظة (في الخريف) وتتوقع حصد شيء.

ثم يسأل سؤالاً آخر: كيف ينجح أسلوب الاستعداد قبيل الامتحان في المدرسة ولا ينجح في المزرعة؟ فيدرك الناس أن الزراعة نظام طبيعي تحكمه قوانين ومبادئ الطبيعة، فلا بد من بذر البذور في الربيع أو الصيف حسب نوع المحصول لتحصد المحصول في الشتاء، أما المدرسة فهي نظام اجتماعي استحدثه الناس تحكمه قواعد وقيم المجتمع، فإذا اعتمد المجتمع على نظام الامتحان الواحد في تقييم الطالب، فيمكن للطالب أن يستغل ذلك بالاستعداد في آخر لحظة وحشو رأسه بالمعلومات قبيل الامتحان فيحصل على النجاح.

ثم يعود فيسأل: هل من الممكن أن تحصل على درجات جيدة في المدرسة دون أن تكون قد تعلمت شيئًا حقيقيًا؟ والغريب أنه حتى الأوروبيون والأمريكيون يجيب أغلبيتهم بأن هذا



جائز تمامًا، وبعبارة أخرى إذا أردنا التحدث عن الأسلوب الطبيعي و سنن التعلم وتطور العقل ونموه، فإن هذه المسألة تحكمها قوانين المزرعة وليس قانون المدرسة، أي أن العقل لا بد أن يتدرب ويجاهد في الحصول على المعلومة لتثبت، ولا بد أن يعتمد المدرس على التجارب ويطلب من التلاميذ إعداد البحوث، ويتركهم يفكرون في حل مسائل الرياضيات، ليتعلموا تعلمًا حقيقيًا، أما التلقين والدروس الخصوصية فلا تنتج متعلمًا حتى ولو حصل على مجموع فوق 95% في الثانوية العامة، أي أن القوانين الطبيعية أو السنن الكونية هي التي تؤدي إلى التعلم، أما النظام الاجتماعي السائد حاليًا في التعلم فيؤدي إلى الحصول على الشهادات.

ثم ينتقل إلى نقطة أخرى تتعلق بالسلوك، مثل الحديث عن انقاص الوزن، ويسأل هذا السؤال: كم منكم حاول إنقاص وزنه عدة مرات خلال حياته؟ وترتفع نسبة لا بأس بها من الأيدي، ثم يسأل: ما هو السر الحقيقي وراء النجاح في إنقاص الوزن؟ فيبدأ الجميع في التفكير، ويدركون في النهاية أنه من أجل التخلص من الوزن الزائد بصورة دائمة وصحية في الوقت نفسه، فلا بد أن يعدلوا اتجاه سفرهم، أي عاداتهم في الأكل ونوعية الأكل بما يتوافق مع القوانين والمبادئ والسنن الطبيعية، كالغذاء السليم الصحي بدون إسراف، وعدم العشاء ثم النوم مباشرة، والممارسة الدائمة للرياضة، لكن نظام النهم الاستهلاكي السائد في المجتمع، أو أسلوب العمل الذي يجعل المرء لا يعود إلى بيته إلا بعد السابعة مساءً وهو جائع جدًا، فإن ذلك لا يؤدي إلى أسلوب حياة يساعد على إنقاص الوزن أو حتى الحفاظ عليه، وقد أدى انتشار الوجبات الجاهزة المعتمدة على البييتزا والشطائر - أو كما يسميه الأمريكيون الطعام الزبالة (Junk Food) - إلى ازدياد أوزان الأطفال والشباب الأمريكي، بحيث أصبحت البدانة ظاهرة يحاولون علاجها الآن، وهكذا يبدأ الحاضرون في إدراك أن قوانين الطبيعة والسنن الكونية لا تصلح للمزرعة وحسب بل للعقل والجسد أيضًا.

ثم يحاول في الخطوة التالية تطبيق أسلوب التفكير هذا على العلاقات، فيسأل: هل تعتقدون أن العلاقات تحكمها قوانين المزرعة أم قوانين المدرسة على المدى البعيد؟ يؤكد الجميع أن العلاقات تحكمها قوانين المزرعة، أو بعبارة أخرى السنن الكونية وليس النظام الاجتماعي الذي وضعه البشر لأنفسهم، بمعنى أنك لا تستطيع حسم مشكلة في العلاقات ما لم تصلح سلوكك، ولا تستطيع منح الثقة لأحد ما لم يكن جديرًا بها في المقام الأول، فيدرك



الحاضرون أن الثقة والاستقامة والصدق هي دعائم تضمن استمرارية وجود أي علاقة مع مرور الزمن، فقد يتظاهر شخص ما بالاستقامة أو الصدق معك لبعض الوقت، وقد يؤثر بادعائه هذا عليك وعلى الآخرين، لكن سرعان ما تتضح الحقيقة، فانهيار المبادئ يؤدي إلى ضياع الثقة فتسوء العلاقات، سواء كانت علاقات بين الأفراد وبعضهم أو بين أفراد ومؤسسات أو حتى علاقة بين المجتمع والحكومة أو بين أمة وأخرى، إذن هناك قانون أخلاقي، وهناك حس أخلاقي أيضًا مبني على معرفة داخلية، أي مجموعة من المبادئ الكونية الثابتة التي لا تتبدل مع الزمان أو المكان.

والعجيب أن كوفي وصل لهذه المرحلة بحكمته، ثم لم يسمَّ الأسماء بأسمائها، فهذه المبادئ الكونية الثابتة التي لا تتبدل مع الزمان والمكان هي مبادئ الدين - أي دين - لأن الأديان كلها - الصحيح منها طبعًا - من عند الله، والتي تدعو لنفس المبادئ كالصدق والعدل والأخوة والمساواة.

ثم يطبق مستوى التفكير هذا على موضوعات متعددة موجودة في المجتمع، مثل: إصلاح النظام الصحي، فيسأل: ما الذي يجب أن نركز عليه في البداية؟ الجميع تقريبًا يؤكدون على ضرورة التركيز على الرقابة، أي بعبارة أخرى على سلوك الأفراد، وتصحيح نظامهم القيمي - أي اتجاه سفرهم - فالنظام القيمي الاجتماعي البشري بالنسبة لموضوع الرعاية الصحية يركز في المقام الأول على تشخيص وعلاج الأمراض بدلًا من الوقاية منها، الوقاية التي تتحقق بتغيير أسلوب الحياة غير الصحية المؤدي إلى الأمراض، وبذلك تهدر المجتمعات كثيرًا من المال والوقت لعلاج الشخص أو إبقائه على قيد الحياة دون قدرة على شفائه، بدلًا من وقايته من الأمراض طول حياته، وهنا يكمن قصور النظام القيمي الاجتماعي الذي وضعه البشر، فقد اهتم الطب بدور التشخيص والعلاج والكسب الهائل من ورائها، لدرجة أن كبار الأطباء والمستشفيات الخاصة عرقلوا مشروع الرعاية الصحية الشاملة بالولايات المتحدة سنين طويلة، لأن النظام القيمي بشري وليس نظامًا كونيًا يعتمد على السنن الثابتة، فكانت مصلحة الأطباء ومكسب المستشفيات أهم من صحة الأمريكيين.

ثم ينتقل إلى مثال آخر وهو النهوض بالتعليم وتحسين مستوى المعيشة، والإصلاح السياسي أو أي إصلاح آخر.. الخ، وهكذا يدرك الحاضرون في النهاية. النقطة الرابعة: وهي:



أن جوهر السعادة والنجاح الحقيقيين هو أن تعدل اتجاه سفرك بما يتوافق مع القوانين الكونية الثابتة، في النهاية يوضح لهم مدى التأثير الهائل الذي يمكن أن تحدثه العادات والتقاليد والقيم الثقافية علينا وتؤثر به على احساسنا بالشمال الثابت، فأى مكان نكون فيه وفيه قوى مغناطيسية أو كهربية مؤثرة يمكن أن تحجب عنا الاتجاه الصحيح للشمال الثابت، فإذا خرجت من المكان لا يهتز مؤشر الشمال إلا قليلاً عن وضعه الصحيح.

ويقارن عندئذٍ بين انجذاب المغناطيس للقوى الكهربية والمغناطيسية الموجودة في مكان ما وبين قوة تأثير الثقافة والتقاليد والاتجاهات المستحدثة والقيم التي ترحح ضمائرنا عن اتجاهها الصحيح، وتحرفها عن تمييزها الصحيح للمعروف والمنكر، إلى أن نخرج إلى الطبيعة حيث تعمل البوصلة الحقيقية بكفاءة، عندئذٍ نستطيع أن نبطل الخطر ونأمل ونغوص في أعماق أنفسنا وننصت لما تمليه علينا ضمائرنا دون تشويش أو تأثير سلبي عليها، ويوضح للحاضرين أنه من السهل على الناس أن يفقدوا «قيمهم الأخلاقية» وينخلعوا من جذورهم لمجرد رغبتهم في الشعور بالقبول من المجتمع بقيمه المستحدثة وبالانتماء إليه، ثم يأخذ قلمه المعدني ويضعه قبالة البوصلة ويريمهم كيف يستطيع تحريك إبرة البوصلة في كل الاتجاهات، وكيف يستطيع حتى أن يعكس اتجاهها بحيث يتغير الشمال فيصبح جنوباً، ويستخدم هذا المثال ليوضح لهم كيف أن الناس أحياناً يرون الصواب خطأ والخطأ صواباً؛ لأنهم وقعوا تحت تأثير شخصية قوية التأثير للغاية، أو خاضوا تجربة عاطفية بالغة التأثير، كالانفصال بين الأبوين أو خيانة من يحبون، وهذه الإصابات النفسية قد تسبب اهتزازاً عنيفاً أو دماراً لمعتقدات الشخص.

ثم يستخدم هذا التحليل ليصل إلى النقطة الخامسة والأخيرة: أنه يمكن أن يتعرض إحساسنا الأخلاقي بالقوانين والمبادئ الكونية الثابتة للتغيير أو الاستبدال أو حتى الاختفاء بسبب التقاليد المستحدثة، أو بسبب انتهاك الفرد لضميره بصورة متكررة، وهذا يمكن أن يحدث للأمة كلها، كما حدث للأمم الغربية عندما حدث الانفصال النكد بين الدين والحياة، بسبب تعنت الكنيسة وغيابها في العصور المظلمة في أوروبا، فوصلوا إلى معاداة الدين ككل، وحدث تغيير في المبادئ الثابتة وفي الضمير الجمعي نتيجة قيم بالغوا في رفع قيمتها كقيمة الحرية، فأصبحت الحرية الشخصية أهم من الحفاظ على العفة والعلاقات الزوجية، وأصبحت الحرية أهم من الحفاظ على



المجتمع من وباء كمرض الإيدز كاد يستأصله بسبب الحرية الجنسية، ورغم أن كل الأديان والقيم الثابتة تؤكد على قيمة: لا تنز، صار الزنا مستباحاً لدرجة أنه أصبح يستهجن من لا يمارسه، ولدرجة أن الولد إذا لم يصاحب فتاة أو أن الفتاة إذا لم يكن لها خليل حتى سن العشرين مثلاً تعرضها أمها على الطبيب خشية أن تكون شاذة جنسياً، أو يعرضه والده على إخصائي اجتماعي خشية أن يكون به خلل في الشخصية، وأصبحت العلاقة الجنسية الكاملة قبل الزواج ينظر إليها على أنها ضرورة حتى يتأكد الطرفان أنها يمكن أن يعيشا معاً بتوافق، فلما استشرى هذا الأمر أصبح الرجل والمرأة يعيشان معاً دون زواج، وأصبح الزواج مسألة شكلية لا حاجة لها في إثبات النسب، والأدهى من ذلك أنه يمكن أن يتزوج رجلان، أو تتزوج امرأتان وتكونا أسرة يتبنيان فيها أطفالاً، وتصبح إحداها أمّاً والأخرى أباً، فهل بعد هذا انحراف على الفطرة السليمة والقيم والمبادئ الكونية الثابتة؟

ويقول كوفي في نهاية هذا الجزء: مهما كان الجهد الذي نبذله في إعداد رسالة أسرتنا، إذا لم نجد لهذه الرسالة مكاناً ثابتاً في قلوبنا وعقولنا وداخل ثقافة أسرتنا، فإن هذه القوى الثقافية المستجدة سوف تشتتنا وتفقدنا الشعور بالاتجاه الصحيح، وسوف نغير إحساسنا الأخلاقي لدرجة قد نصل معها إلى اعتبار أن الخطأ هو أن يضبطك أحد وأنت تخطئ لا لأنك تفعل الخطأ، وأنا أضيف أن الأمر وصل في الغرب إلى أن الخطأ لم يعد خطأ أصلاً، فكل ما أخذه الأمريكيون على رئيسهم كلينتون في الفضيحة التي تورط فيها أنه كذب عليهم، وأنكر أن المتدربة في البيت الأبيض كانت تقوم بشيء جنسي معه في المكتب البيضاوي، الخطأ أنه كذب ولكنه لو قام وقال: نحن أحرار -أنا وهي- في أن نفعل هذا الفعل الفاضح في المكتب البيضاوي لفرح الأمريكيون بفحولته وفخروا به، كما يفخر الإيطاليون بفحولة رئيس وزرائهم بيرلسكوني وعلاقاته الجنسية مع فتيات في سن الثامنة عشرة وهو قد قارب السبعين، ويتخبونه المرة بعد المرة، وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿فَاتِّمَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46].

ثم يعود كوفي ويؤكد: إن من الأهمية بمكان تدريب الطيارين على استخدام المؤشرات ومعدات التوجيه حتى وإن لم يكونوا بحاجة إليها أثناء الطيران، حتى لا يعتمدوا على حواسهم فقط، والتي قد تنحرف بهم عن الاتجاه الصحيح، ولهذا السبب يرى أنه لا بد من



تدريب الأطفال على المعدات التي لديهم، أي على المنح الإنسانية الأربعة التي تساعدهم على التمسك بالطريق القويم، وربما كان هذا أعظم دور يمكن أن يلعبه الأبوان، ويطلب منها أن يكثرا من التوجيه والتلقين، فهناك حاجة ماسة لمساعدة الطفل على تفهم الهبات التي منحها له الله، وأهمها الضمير، حتى يكون مدرّباً تدريباً على مستوى عالٍ، ولديه القدرة على الوصول إلى طوق النجاة الذي يحمله إذا سقط في اليم يبقيه حيّاً، والذي من دونه ينهار ويقع تحت تأثير ثقافة المجتمع التي أصبحت خطراً على الطفل وعلى الأسرة على حد سواء.

إسقاط ذلك إسلامياً:

ولكن المعضلة هنا كيف يدرب الأبوان أطفالهما على حسن استخدام المنح الإنسانية الأربع - والضمير بالأخص - إذا كان الأبوان أصلاً قد تأثرا بثقافة المجتمع وانحرفت بوصلتها، فطالما أنه لا توجد مرجعية - وهي تعاليم السماء - فالانحراف يحدث تدريجياً، حتى لا يرى المجتمع - والأبوان جزء منه - المنكر منكراً، لا يرون أن الزنا أصبح منكراً إلا إذا أجب الرجل المرأة عليه، أما إذا تم برضاها معاً فلا إنكار، حتى ولو كان كلاهما متزوجاً، لكن عندما أتى شاب إلى رسول الله ﷺ طالباً منه أن يأذن له بالزنا، سأله الرسول الكريم ﷺ: أترضاه لأمك؟ قال الشاب: لا، قال: أترضاه لأختك؟ قال: لا، قال كذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم. أما الآن - والعياذ بالله - فالزوج يرضاه لزوجته، والزوجة لا تمنع أن يكون لزوجها علاقة جنسية خارج الزواج بشرط أن يكون لها الحق نفسه، وبشرط ألا تكون علاقة قائمة على الحب، فكيف سيقوم مثل هذين الأبوين بتدريب أطفالهما على حسن استخدام المنح الأربع، وصدق شاعرنا العظيم إقبال عندما قال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحبي دنيا

3-7 انضرب في الجذور:

يقول كوفي تحت هذا العنوان: حضرت ذات مرة مؤتمراً تحت عنوان «الأديان تتحد في مواجهة التفسخ الأخلاقي»، حيث اجتمع زعماء بعض المؤسسات الدينية والجمعيات النسائية وبعض المعلمين لمواجهة هذا الشر الذي أصاب النساء والأطفال في المقام الأول، وأصبح من الواضح أنه على الرغم من أن الحديث الصريح في هذا الموضوع كان يجرح مشاعر العفاف والفضيلة لدى كثيرين، إلا أنه أصبح ضرورة لأنه صار حقيقة موجودة في ثقافة المجتمع



الأمريكي، في هذا المؤتمر عرضت عليهم لقطات لمقابلات أجريت مع أناس من الشارع، شباب وأزواج حديثي السن، أفرادًا عاديين ليسوا أفراد عصابات ولا مدمني مخدرات، وقال معظمهم: إنه يشاهد الأفلام الإباحية يوميًا؛ بل أكثر من مرة في اليوم، فأصبح الحاضرون على يقين قاطع بأن الإباحية صارت جزءًا أساسيًا من ثقافة الشباب الأمريكي.

ثم ألقى كوفي محاضرة عن إمكانية تغيير الثقافة، أتبعها بجلسة تناقش فيها مع القيادات النسائية حول هذا الموضوع، ووصفت هؤلاء السيدات كيف أن برنامج أمهات ضد شرب السائقين للخمر أصبح له تأثير كبير على المجتمع، بعد أن استوعبت نسبة كبيرة من الأمهات خطورة إدمان الكحوليات على قائدي السيارات، لدرجة أن مشاركتهن أحدثت أثرًا عظيمًا على الأنماط الثقافية في المجتمع الأمريكي، ثم عندما وزعت السيدات كتيبات تصف أنواع الإباحية الموجودة في المجتمع الأمريكي شعر كوفي بالإعياء، وفي محاضرته الثانية والأخيرة تحدث مع الحاضرين عن الإعياء الذي أحس به عند رؤية هذه الكتيبات، وكيف أنه أصبح على قناعة تامة بأن مفتاح تغيير الثقافة هو أن ينغمس الناس من قمة الرأس حتى أخمص القدمين في الواقع المرير، فيما يحدث فعلًا في المجتمع حتى يشعروا بفظاعته، وتأثيره البشع أخلاقيًا على عقول وقلوب الناس، وكيف أن ذلك يؤثر على المجتمع بأسره، وأن المفتاح هو أن تجعل الناس يحسون بالإعياء أو المرض من بشاعة ما يسمعون ويقرأون عن الإباحية كما حدث له، ويطلعوا على البيانات والإحصاءات والتقارير حتى يشعروا بالنفور والاشمئزاز ثم بالحاجة إلى التغيير، وقال للحاضرين: دعوهم يشاركون في وضع الحلول وتحديد مظاهر النجاح للتغيير المنشود، عالجوا الوعي والضمير قبل الخيار والإرادة، أعطوا للمنحَين الأوليين القوة والمناعة قبل أن تطلقوا العنان للمنحَين الأخيرتين، ثم ابحثوا معًا عن القدوة وعن المعلمين الأسوة أفرادًا كانوا أو مؤسسات، كي يستطيعوا التغيير إلى الأفضل، وكي تضعوا القوانين التي تعزز الخير وتحمي الأسرة وتحافظ على العفة.

ثم يستطرد كوفي: لكن قبل كل شيء، وقبل القانون أو أي مجهود يبذله صاحبه للتأثير على الثقافة الشعبية لا بد أن نحصن بيوتنا وأسرنا، يقول ديفيد ثورو: «في مقابل كل ألف شخص يزرع أشجار الشر، هناك واحد فاضل يقتلع الجذور»، البيت والأسرة هما الجذور، في هذه الجذور يجب أن يتم تسليح الفرد بالأخلاق كي يواجه هذه المؤثرات البذيئة، التي



جعلتها التقنية متاحة حتى للأطفال، ولكي يحوّل التقنية إلى شيء ينشر الفضائل والقيم والمعايير الطيبة التي لا بد أن يتحلّى بها المجتمع.

8. من سيربي أبناءنا؟

يقول كوفي: «في حالة عدم التفاعل مع الهبات الأربع، ومع غياب التأثير القوي للأسرة، هل تستطيع أن تتصور مدى تأثير هذه الثقافة التي وصفناها فيما سبق، والمدعومة بكل أشكال التقنية على تفكير طفلك؟ هل من المعقول الاعتقاد بأن الأطفال لن يتشبعوا بالعنف من جراء مشاهد القتل والوحشية التي يشاهدونها في التلفاز سبع ساعات يومياً؟ هل من المعقول أن نصدق مخرجي التلفاز الذين يدّعون أنه ما من دليل يثبت وجود علاقة ارتباطية بين الإباحية واللاأخلاقية في المجتمع وبين المشاهد التي يعرضونها على الشاشة، وهم في الوقت نفسه يقولون: إن هناك دليلاً علمياً يثبت أن إعلاناً تلفزيونياً مدته عشرين ثانية يؤثر على سلوك المشاهدين؟ هل من المنطق أن نقول: إن تقديم أفلام تعتمد على الإثارة الجنسية باستمرار على شاشة التلفاز، وإتاحة المواقع الإباحية للشباب مجاناً على النت هو الذي يربي داخل نفوس شبابنا المبادئ الهادفة والتربية الجنسية الواقعية التي من خلالها يستطيعون تأسيس علاقات أسرية دائمة وحياة أسرية سعيدة قائمة على التوافق الجنسي؟!».

في مثل هذه البيئة المضطربة كيف نستطيع المضي في حياتنا الأسرية المعتادة إذا لم نؤسس بيوتاً متماسكة؟ إذا لم نفعل ذلك فلزام علينا أن نبني سجوناً أكثر، لأن الأبوة البديلة والإعلام السيئ لن يفرزا سوى أفراد عصابات، وستعج المحاكم والسجون بأعداد من المنحرفين تفوق أعدادهم الآن بكثير، وسيتحول الأطفال المحرومون عاطفياً إلى شباب ثائر، يتوق إلى الحب والاحترام، ولكنه لا يجدهما، فيتجه إلى الانتقام من المجتمع الذي حرّمه منهما. وأضيف إلى هذا الحرمان العاطفي والحرمان المادي الذي يعانيه شبابنا المسكين في مصر، المحروم من فرصة عمل بعد التخرج من الجامعة، فعدم قدرة الشاب على العمل أو عدم كفاية المرتب إذا عمل في وظيفة حكومية أو وظيفة في القطاع الخاص لا تتناسب مع مؤهله تجعله يتقاضى مرتباً يكفي بالكاد لمواصلاته وسجائره، ولا أمل لديه في توفير مسكن أو أثاث لازم للزواج، سيؤدي هذا إلى أن يتجه هذا الشباب إلى الزواج العرفي أو ما هو أسوأ منه،



ويتجه إلى الكسب الحرام لأنه سريع وكثير وسهل، ولذلك زادت البلطجة مع غيبة الأمن الجنائي لمصلحة الأمن السياسي.

وفي دراسة تاريخية ملحمية لواحد من أعظم المؤرخين - إدوارد جيبون - حدد أسباباً رئيسة خمسة لأفول نجم الحضارة الرومانية، وهي:

- (1) تفسخ بنیان الأسرة.
- (2) ضعف الشعور بالمسئولية الفردية.
- (3) فرض ضرائب باهظة وسيطرة الحكومة وكثرة تدخلها.
- (4) البحث عن المسرات باعتبارها الهدف الوحيد من الحياة، وذلك بأعنف وأحط الأساليب.
- (5) انهيار العقيدة الدينية.

تأمل كم من هذه الأسباب ينطبق على الحضارة الأمريكية؟ وكم منها يحاولون تصديره إلى بلادنا؟ يقول كوفي: إن أغلبها موجود في الحضارة الأمريكية الآن وهذه شهادة شاهد من أهلهم وليس من المتطرفين الدينيين عندنا، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

والسؤال المحوري هنا، والذي يعتمد عليه مستقبلنا ومستقبل أبنائنا هو: من سيربي أبناءك؟ ثقافة العصر المدمرة أم أنت وزوجك؟

وكما ذكرنا في العادة الثانية، فإذا لم نتولَّ مسؤولية إنتاج أولادنا بأنفسنا فسوف يتولاها شخص آخر، أو شيء آخر، وهذا الشيء (الظروف) سيكون مؤثراً قوياً عنيفاً لا أخلاقياً، وعدواً للأسرة، هذه الظروف هي التي ستشكل أسرتك إذا لم تتدخل أنت بحسم وحزم.

ويقدم كوفي مقارنة سريعة بين الثقافة التي كانت سائدة في الولايات المتحدة منذ 40-50 عاماً والثقافة التي تسود منازل الأمريكيين اليوم وتؤثر في تنشئة أطفالهم:

الآباء في أعمالهم:

كانوا يعملون 40 ساعة أسبوعياً، وكان هناك 20٪ من الأطفال يحتاجون رعاية يومية بسبب متطلبات عمل والديهم، وأصبحوا الآن يعملون من 45-50 ساعة أسبوعياً، وهناك 60٪ من الأطفال يحتاجون رعاية يومية.



فرصة الأطفال في النشأة في كنف الوالدين:

كانت 80% فأصبحت الآن أقل من 50% وكانت نسبة الطلاق 20% فأصبحت 50%، وتزايدت نسبة الأسر التي يعولها أحد الأبوين بمفرده بنسبة 35%.

الدين:

كان 70% من الشعب الأمريكي يشعر بأن تأثير الدين قوي على مناحي الحياة، فأصبح 60% من الأمريكيين لا يرون للدين أي تأثير على الحياة، ويشعر 90% منهم بأن بلدهم تهوى في بئر عميق من الانحطاط الأخلاقي.

المدرسة:

كان المعلمون يحظون بالتقدير والاحترام، وكانت مشكلات التلاميذ هي: الضوضاء ورمي القاذورات والعدو في الطرقات بين الفصول، وأصبح المعلمون عرضة للاعتداء، فقد تزايدت الاعتداءات على المعلمين من سنة 1978 إلى 1990 بنسبة 70%، وأصبحت مشكلات التلاميذ هي: المخدرات وإدمان الكحول والحمل والانتحار والاعتصاب وحوادث السطو والاعتداء الجسدي، وصارت جرائم العنف الصادرة عن الأحداث 76 حادثة عنف لكل 100 ألف حدث، وتزايدت بنسبة 90% منذ بداية التسعينيات. وقد كانت حادثة عنف لكل 100 ألف حدث.

يقول كوفي: ليس الهدف من مقارنة الحاضر بالماضي هو أن نحاول العودة للوضع في الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن العشرين، بل لندرك أنه بسبب التغيير الهائل الذي طرأ على كل شيء، وبسبب تأثيره المذهل على الأسرة فلا بد أن يكون رد فعلنا لما يحدث على مستوى الحدث، ويؤكد لنا التاريخ بكل وضوح أن الأسرة هي أساس المجتمع، وأنها لبنة البناء لكل أمة، وأنها المنبع لتدفق نهر الحضارة، وأن الأسرة في ذاتها مبدأ متأصل في نفس كل فرد سوي لم تغيره القيم المستحدثة، غير أن الوضع الأسري التقليدي وتماسكه قد ذهب بلا رجعة في الغرب.

ولا بد لنا أن نفهم أن دور الأبوة دور حيوي لا يمكن الاستعاضة عنه بشيء آخر - وهذا ما سنتحدث عنه تفصيلاً في العادة الرابعة - بل وأصبح الآن مهماً أكثر من أي وقت مضى، ولم نعد نستطيع الاعتماد على الحضانات أو المربيات كي يربوا أولادنا، ولا بد أن نعلم



نحن أولادنا مبادئ «الشمال الثابت» التي تحكم كل شيء في حياتنا، لا بد لنا أن نوجد القيادة والقدوة داخل أسرتنا فأولادنا في حاجة ماسة إليها، أنهم بحاجة لنصائحنا ودعمنا وحكمتنا وخبرتنا وقوتنا وخدماتنا، إنهم بحاجة إلى القيادة الأسرية أكثر من أي وقت مضى وهذه مسئولية الأبوين، ولا بد أن يبارسا هذا المسئولية كما سنبتين في العادة الرابعة، والقوى التي تجذب الأسرة من كل اتجاه في أيامنا هذه قوى عاتية، ونتيجة لذلك علينا أن نختر: إما أن نقود السفينة، أو أن نترك التيار يجرفنا إلى حيث يشاء، إن مفتاح القيادة الناجحة هو قيام الوالدين بمسئوليتهم، واتباع تعاليم السماء، والاهتمام بطقوسنا العائلية الأصيلة.

3-9 وقت أسبوعي للأسرة:

يقول كوفي: إنه اكتشف أنه لا شيء يساعدك على وضع أسرتك على قائمة أولوياتك أكثر من تخصيص وقت للأسرة أسبوعياً، ولتسمية وقت الأسرة أو ساعة الأسرة أو ليلة الأسرة أيها شئت، ومهما كان الاسم فإن الهدف الرئيس هو أن يكون لديك وقت ثابت مخصص للأسرة تقضيه مع أسرتك مهما كانت مشغولياتك.

تقول سيدة تبلغ من العمر 34 سنة: كانت أمي أول من حثنا على تخصيص وقت لنشاط عائلي أسبوعياً عندما كنا أطفالاً، وكنا نمارس فيه أي شيء يخطر على بالنا، أحياناً نذهب للتزلج على الجليد أو للتعاب البولنج أو لمشاهدة فيلم سينمائي، وكنا نعشق تلك الأوقات، وكنا دائماً نختم هذا النشاط بالذهاب إلى مطعمنا المفضل في بورتلاند، تلك الأوقات كانت تجعلني أشعر دائماً بأنني قريبة جداً من أسرتي، ولدي ذكريات جميلة كثيرة عن تلك الأوقات، لقد توفيت أمي وأنا في سن المراهقة، وكان لذلك أثره النفسي البالغ عليّ، ولكن كان والدي حريصاً بعد وفاتها على أن نجتمع كل سنة ولو لأسبوع واحد؛ الأولاد وأزواجهم وزوجاتهم وأطفالهم، كل فرد في الأسرة، لكي نوقظ تلك المشاعر من جديد، وعندما ييم كل واحد منا بالعودة مع أسرته مرة أخرى إلى ولايته كان يتنابني شعور بالحزن وبالسعادة أيضاً، فما زال لدى أسرتنا الكثير من القوة برغم تباعدنا، والأعضاء الجدد في هذه الأسرة لا ينقصهم هذا الشعور بالترابط، بل يضيفون إليه، لقد تركت والدي ميراثاً عظيماً، ورغم أنني لم أتزوج إلا أنني أعلم أن إخوتي وأخواتي لديهم أوقاتهم الأسرية التي يقضونها مع أطفالهم، ولا يزال هذا المطعم هو نقطة اللقاء المفضلة لنا جميعاً.



راقب مشاعر هذه السيدة عندما تسترجع ذكرياتها الأسرية، وانظر كيف تؤثر على حياتها الآن، وعلى علاقتها مع إخوتها وأخواتها، وعلاقاتهم هم بأسرهم، هل يمكنك الآن أن تبدأ في استشعار الرابطة القوية التي تنتج من اجتماع الأسرة أسبوعياً، وقضائها وقتاً ممتعاً معاً؟ هل يمكنك أن ترى كيف أنها تضيف إلى الحساب المودع في بنك العواطف؟

يقول كوفي: إن قضاء أمسية أسرية كل أسبوع كانت إحدى الطقوس المتبعة في أسرنا منذ البداية، وعندما كان أبنائي صغاراً للغاية كنا نستغل هذه الأمسية أنا وزوجتي كي نعزز لغة التفاهم والتواصل بيننا نحن الاثنين ونخطط لكلينا، وعندما شب أبنائنا كنا نستغل الأمسية كي نعلمهم ونلهو معهم، ونجعلهم يشتركون معنا في نشاطات مسلية ومفيدة، وفي اتخاذ قرارات أسرية تهمنا جميعاً، كانت هناك أوقات لم أكن موجوداً فيها أنا أو زوجتي أو أحد أبنائنا، ولكن مهما كانت الظروف كنا دائماً حريصين على تخصيص أمسية واحدة على الأقل كل أسبوع للقاء أسرنا.

وفي مثل هذه الأمسيات الأسرية كنا نراجع مواعيد الأحداث القادمة، كي يعرف كل منا ارتباطات الآخرين، ثم نعقد مجلساً أسرياً نناقش فيه كيف نحل المشكلات ونشترك في وضع القرارات، وكنا نستعرض المواهب التي اكتسبها أولادنا، فيطلعوننا ويطلعون إخوتهم على ما وصلوا إليه في دروس الرقص والموسيقى والجمباز التي يتلقونها، ثم نعطيهم درساً قصيراً في مبدأ من المبادئ أو قيمة من القيم، ثم نشترك في نشاط أسري معاً، ثم نقدم المرطبات والحلوى، ونحرص على أن نصلي معاً، ثم نغني أغنية من أغنيات الأسرة المفضلة لدينا مثل «الحب في المنزل» للمطرب جون ماكتون.

ما أجمل هذا، وأجمل منه لو قرأت الأسرة معاً حديثاً شريفاً وتواصلوا على العمل به، وراجعوا بيان مهمة الأسرة ليتفوقوا على مهمة سيقومون بها الأسبوع القادم.

يقول كوفي: بهذه الطريقة نكون قد حققنا ما كنا نشعر بأنه المكونات الرئيسة الأربعة للوقت الأسري الناجح: التخطيط، التعليم، حل المشكلات، والاستمتاع بالوقت، لاحظ كيف أن هذه العناصر جميعها يمكن أن تلبى أربعة احتياجات مهمة: احتياجات جسمانية واجتماعية وأمنية وروحية، وكيف يمكن أن يكون هذا اللقاء أداة تنظيمية عظيمة الأسرة، لكن ليس هناك ضرورة ملحة لكي يكون اللقاء الأسري به كل هذا من أول مرة، فيمكنك



أن تبدأ تدريجيًا بالاستعانة ببعض هذه العناصر وليس جميعها، يمكنك أن تبدأ مثلًا على مائدة العشاء، استخدم خيالك، واجعل وقت الأسرة هذا وقتًا مسليًا كله في البداية، وبعد فترة سيدرك كل أفراد الأسرة أنهم يتلقون الغذاء الروحي بعدة طرق، وسيكون من الأسهل بعدها أن يصبح وقت الأسرة مجالًا أكبر للاندماج والمشاركة، فالناس عامة - والأطفال خاصة - يتلهفون على خوض تجارب أسرية تجعلهم يشعرون بقربهم من بعضهم البعض، فهم يريدون أسرة يشعرون فيها بأن كل فرد يظهر اهتمامه بالآخرين، ويشعرون فيها بالتقدير والاهتمام، وكذلك فكلما وازبنت على توفير ذلك في أسرتك كلما أصبح الأمر أكثر سهولة ويسر، ولن تتخيل مدى التأثير الإيجابي الذي سيحدثه هذا اللقاء والذي سينعكس على أسرتك.

قدّم أحد أصدقاء كوفي رسالة دكتوراه موضوعها: «تأثير عقد لقاءات أسرية على نظرة الطفل لنفسه»، ورغم أن الدراسة أظهرت مدى التأثير الإيجابي لهذه اللقاءات على الأبناء، فقد أظهرت نتيجة أخرى لم تكن متوقعة وهي مدى التأثير الإيجابي لهذه اللقاءات على الآباء أيضًا، إن الأوقات الأسرية الأسبوعية هي الرد القوي المناسب على التحديات التي تواجهها الأسرة اليوم، فهي تعد أسلوبًا عمليًا يمكنك من وضع أسرتك على رأس أولوياتك، والتزامك بالموعد دائمًا في حد ذاته سيعلم أطفالك مدى أهمية الأسرة لك، وسيبدؤون بتكوين ذكرياتهم، وسيكون لديهم رصيد غني من العواطف، إنها الوسيلة التي يمكنك بها بناء شبكة أمان لأسرتك، بحيث لو وقع أحد أفرادها تحميه الشبكة من الموت، ويمكنك بالوفاء باحتياجاتها الأساسية، جسديًا وماديًا واجتماعيًا وذهنيًا وثقافيًا وروحيًا وجماليًا، لقد وازبنت كوفي على تدريس فكرة اللقاء الأسري هذه لمدة عشرين عامًا (منذ منتصف السبعينيات)، ولقد أكد له كثير من الأزواج كيف أن الوقت المخصص للأسرة يمثل فكرة عظيمة القيمة يسهل تطبيقها عمليًا من أجل الحفاظ على كيان الأسرة، ويقول هؤلاء: إن هذه الفكرة كان لها أعمق الأثر في وضع الأسرة على رأس الأولويات، وفي توطيد العلاقات بين أفراد الأسرة، وفي الاستماع والاستمتاع بأي فكرة أسرية يتم طرحها فيها.

3-9-1 كيف تحول رسالة الأسرة إلى دستور عائلي؟

يتيح الوقت المخصص لأسرتك فرصة عظيمة لمناقشة رسالة الأسرة (في بيان مهمة الأسرة) وبعثها إلى حيز الوجود، فإذا ما أعدت أسرتك هذه الرسالة ستكون خير عون لك



للتوصل إلى أسلوب عملي يمكنك من تحويلها إلى دستور عائلي، ومن الوفاء بالاحتياجات الأربعة، احتياجات روحية (بالتخطيط) واحتياجات ذهنية (بالتعليم)، واحتياجات جسمانية (بحل المشكلات)، واحتياجات اجتماعية (بالاستمتاع معاً).

تقول ساندرار زوجة كوفي: في أحد اللقاءات كنا نتحدث عن نوعية الأسرة التي نريد أن نكون عليها، وسجلنا ذلك في عبارة في البيان الذي يعبر عن رسالة أسرنا، وركزنا على موضوع تأدية الخدمات للغير، ومدى أهمية خدمة كل فرد فينا للآخر وللجيران وللمجتمع الأكبر، لذلك في الليلة التالية قررت إعداد كلمة عن اقتراحي لهذا الأمر، واستأجرت جهاز عرض (فيديو) لتشهد أسرتي فيلمًا عن رجل ثري كان السبب في حادث سيارة أصاب فتاة بالعمى، مما سبب له إحساسًا عميقًا بالذنب لأن إهماله قد غير حياتها للأبد، وأراد أن يعوّضها عن ذلك ويساعدها على التأقلم مع الوضع الجديد، لذلك قام باستشارة استشاري من أصدقائه ليعلمه كيف يقوم بخدمة ومساعدة الآخرين سرًا، وبينما نحن نشاهد الفيلم تحدثنا عن جيراننا في حيننا، ومدى اهتمام بعضهم بالحلي وإحساسهم بالمسئولية عنه ومدى تقديرنا لهم، واتفقنا جميعًا على أننا نريدهم أن يعرفوا أننا نقدرهم بأن نؤدي لهم بعض الخدمات، فاتفقنا أن نكون مجموعة منا أسميناها العائلة الشبح، ولمدة ثلاثة أشهر، وفي كل لقاء أسري كنا نقوم بإعداد شيء لطيف مثل الفيشار أو فطيرة التفاح أو الكيك أو ما شابه ذلك، وكنا نذهب للأسرة التي سنقوم بتأدية خدمة لها، ثم نضع الطعام على مدخل البيت ونترك معه ورقة نعبر فيها عن مدى إعجابنا بهم وتقديرنا لهم، ونوقع باسم العائلة الشبح، ونقرع جرس الباب ثم نجري بسرعة الريح.

كنا نفعل ذلك الشيء كل أسبوع ولم يكتشفنا أحد، ولكن في إحدى الليالي أبلغ صاحب البيت الشرطة معتقدًا أن هناك من كان يحاول اقتحام منزله، وبسرعة كان جميع الجيران يتحدثون عن العائلة الشبح، وتحدثنا معهم عن ذلك وكأننا لا نعرف شيئًا، وتساءلنا معهم: من عساها أن تكون؟ وكانت هناك شكوك لدى بعض الناس، وفي إحدى الليالي وجدنا طعامًا على باب بيتنا وبجانبه ورقة تقول: «إلى العائلة الشبح من جيرانكم الذين يشكون فيكم»، كان لهذه اللفتة أثرها الكبير، فقد ساعدتنا جميعًا على تعلم المزيد عن مبدأ الخدمة العامة.



لقد وجدنا أن كل فكرة في رسالة أسرتنا من الممكن أن تكون أساسًا لمناقشات كبيرة للأسرة وأنشطتها، مما يساعدنا على ترجمة الرسالة إلى لحظات من الحياة الأسرية الجميلة، وطالما أننا نجعل في هذه الأنشطة متعة وإثارة في إمكان كل فرد منا أن يتعلم ويستمتع، وبوضع الرسالة ثم العمل من أجلها تستطيع الأسر أن تبني بالتدرج السلطة الأخلاقية في الأسرة نفسها، أي أن تغرس المبادئ في بنية الأسرة وثقافتها، ويدرك الجميع أن المبادئ هي جوهر الأسرة، وهي التي تجعلها قوية ومتحدة وملتزمة بمصيرها معًا كأ أسرة.

(1) وقت للتخطيط:

يحكي أب ما يلي: منذ عامين لاحظت أنا وزوجتي أن فصول الصيف أصبحت مثقلة بأعمالنا بصورة متزايدة، وأنا لا نقضي الوقت الكافي مع أولادنا كما نريد خلال الإجازة الصيفية الدراسية، فطلبنا منهم في إحدى الليالي الأسرية أن يجربونا بما يفضلون القيام به خلال الصيف، فذكروا كل شيء بدءًا من شراء الآيس كريم إلى تسلق الجبال والذهاب للبحيرة للسباحة، وكان ممتعًا سماع كل واحد منهم وهو يتحدث عما يفضله ويستمتع به، وعندما وضعنا قائمة بكل هذه الأنشطة أمامنا بدأنا في مسح بعضها من القائمة؛ لأننا بالطبع لا نستطيع تنفيذها كلها، وحاولنا أن نبقي على الأنشطة المفضلة عند أكثر من واحد، ثم أحضرنا نتيجة الشهر، وبدأنا نحدد عليها موعدًا للقيام بكل منها، فجعلنا أيام السبت للأنشطة التي تحتاج إلى يوم كامل، كما جعلنا الأنشطة التي لا تحتاج لوقت طويل في نهاية بعض الأيام، وحددنا أسبوعًا كاملًا لإجازة عائلية قرب بحيرة تاهو، أسبوع كامل!! سعد الأطفال كثيرًا عندما رأوا أننا خططنا بالفعل للقيام بالأشياء المهمة لهم، ونحن وجدنا أن التخطيط قد أحدث فرقًا كبيرًا في سعادتهم وسعادتنا نحن أيضًا.

ولم يعد الأولاد يسألون باستمرار متى سنفعل هذا أو ذاك، لأنهم يعرفون مسبقًا متى يكون ذلك؛ لأن ذلك كله مدون على النتيجة، ونحن بدورنا تأكدنا من تنفيذ المخطط وأعطيناه الأولوية القصوى في حياتنا، مما ساعدنا على تكوين التزام جماعي، وهذا الإحساس بالالتزام جعلنا أكثر قوة والتحمًا، هذا التخطيط ساعدني على الالتزام بما أردت فعله، والذي لم أفعله سابقًا بسبب ضغوط العمل والانشغال، ولأنني أدركت أنني إذا أخفقت في الحفاظ على هذا الالتزام سأسبب خيبة أمل كبيرة لأسرتي، ولذلك حافظت على التزامي.



هذا الرجل اكتشف أن وقت الأسرة المشترك وقت رائع يستحق التخطيط له، بحيث يشترك فيه كل فرد، ويمكنهم معاً أن يقرروا كيف يمكن للأسرة أن تقضي وقتها في أحسن صورة، ويكون كل فرد على علم مسبق بوقته وموعده.

كثير من العائلات تقوم بنوع من التخطيط الأسبوعي خلال وقت الأسرة، قالت إحدى الأمهات: يأخذ التخطيط وقتاً من وقت الأسرة كل أسبوع، فنحن نحاول أن نستعرض أهداف كل فرد من أفراد الأسرة وأنشطته، حتى نتمكن من التخطيط لأنشطة الأسرة مجتمعة، ولكي يكون كل منا على علم بما يفعله الآخرون من أفراد الأسرة خلال الأسبوع، حتى نتمكن من مساعدتهم، وكذلك لكي نحصل على المعلومات التي تمكننا من ترتيب المواعيد والعناية بالأطفال أثناء الخروج للعشاء، وحل أي تناقضات في جدول المواعيد، ومن الأشياء الممتازة لهذا الجدول الزمني هو أنه يساعد في الرد على الهاتف، فعندما يتصل شخص بأي فرد من الأسرة، يمكن لأي منا أن يرد قائلاً: آسف إنه ليس هنا، إنه يمارس لعبته وسوف يعود للمنزل في الخامسة، وأصبحنا نشعر بالرضا معرفتنا بمكان تواجد أفراد الأسرة، وأن بوسعنا الرد بسهولة على أصدقائهم عند اتصالمهم، وكذلك نشعر بالرضا لأن الأطفال يمكنهم الرد على التليفونات بكفاءة أيضاً.

إن وجود جدول زمني يمكنك من التخطيط واستغلال الوقت معاً، بما في ذلك الوقت الأسبوعي للأسرة والزيارات الفردية، وكذلك يساعد كل فرد على الشعور بقيمته في الأسرة، فالجدول لا يخدم الأب والأم فقط، ولكنه يعكس أيضاً أولويات وقرارات الجميع، وبتحديد وقت للأسرة كل أسبوع يمكنك أن تشعر بالاطمئنان حيث تعلم أن هناك من يعتني بالضيافة عندما يكون هناك ضيوف، أو يعتني بالجلوس مع الأطفال عندما تكون الأم بالخارج... وهكذا، فتكرس نفسك بالكامل لأسرتك ولعملك ولأنشطتك أيضاً، لأنك تعلم أن هناك وقتاً تم تحديده للأشياء الأكثر أهمية، ويمكن القيام بكل هذه الأعمال عن طريق أداة بسيطة هي التخطيط، والتسجيل على النتيجة التي تعلق على الحائط، ولكن لا بد من لقاءات منتظمة للتخطيط، أو استغلال جانب من وقت الأسرة لذلك.

2) وقت للتعليم:

يقول كوفي: وجدنا كذلك أن وقت الأسرة هو وقت عظيم لتدريس المبادئ الأساسية للحياة، وقد قضيت أنا وساندر زوجتي، أوقاتاً مدهشة في تعليم أولادنا المبادئ الكامنة وراء



العادات السبع، تقول ساندرنا: منذ بضع سنوات كانوا يبنون مجتمعاً به أسواقاً تجارية في وسط مدينة سولت ليك من نوع الميجا مول (مجمع المحلات)، حيث هناك محلات البقالة ودور السينما والمطاعم وأماكن الجذب الترفيهية، وذكر ستيفن في إحدى الليالي الأسرية أنه استطاع ترتيب زيارة لنا لموقع العمل مع أحد المهندسين المعماريين المسؤولين عنه، وقد أخذنا المهندس المعماري إلى السطح العلوي لمبنى مجاور حيث أخذ يشرح لنا تفاصيل المشروع وتعقيده، واندھشنا لحجم المشروع والتخطيط المحكم والتقنية المتقدمة التي ستكون فيه والخبرة المستغلة لجعله جذاباً، وشرح لنا المهندس أنهم بدءوا التنفيذ وصورة المنتج النهائي في رأسه وفي اللوحات، وكان عليه عمل العديد من اللقاءات التنسيقية مع الملاك والعاملين والمهندسين ليشرح لهم بالتفصيل الدقيق التصميم والغرض، والوظيفة لكل جزء ومواصفات البناء والتشطيب واشترطات الحريق... إلخ، وكنا مندهشين جداً ونحن نراه يستعرض كل قطاع من المبنى على شاشة تلفزيونية عن طريق رسومات ثلاثية الأبعاد تتحرك الكاميرا بداخلها، ويشرح لنا ما سيكون هنا وهناك بالضبط، ثم مشينا معه إلى غرفة كبيرة حيث شاهدنا المئات من لوحات التحكم بالتكييف والإضاءة الداخلية والخارجية والصوت والحريق والسلام والمصاعد..

كذلك شرح لنا التصميم الداخلي، ولماذا تم اختيار ألوان الدهانات على هذه الصورة؟ واختيار ورق الحائط والأرضيات وأسبابها وتفصيلها، وشعرنا بالدهشة لكل هذه التفاصيل والأفكار والتخطيط المسبق، وانتهزنا الفرصة أنا وستيفن ونحن في طريق العودة لتحدث مع أطفالنا عن مبدأ العمل وصورة المنتج النهائي في رأسك، وعن تأثير ذلك على القرارات والخطط التي نتخذها في حياتنا كل يوم، فإذا أردنا التفوق في الدراسة في المدرسة فلا بد من الإرادة والموهبة والعمل المتواصل بتوجيه من المدرسين والأم، ولا بد أن نتخلى عن أشياء أخرى كي نركز ونتقدم دراسياً ونتفوق، وحتى نتفوق في الرياضة لا بد أن نختار الرياضة التي تناسب مواهبنا الطبيعية، ونهتم بالتدريب ونواظب عليه، ونتحمل الإصابات، ونحمس أنفسنا في المباريات، ونتعلم من الخسارة، ونثق في قدراتنا، وقلنا لهم: إن الأشياء الناجحة لا تحدث صدفة، ولكن عليك أن تتصور أهدافك وتحدها، وتحسب تكلفة تحقيقها، وتدفع الثمن حتى تحققها.



إن الليلة العائلية فرصة عظيمة للمشاركة في نشاط مهم مع أطفالك، هذه الليلة سوف يتذكرونها لوقت طويل، إن الوقت العائلي هو وقت عظيم لتعليم الكفاءة بطريقة عملية، ويمكن عن طريق الألعاب تعليم الأطفال فكرة البنوك والتوفير، أو فكرة العمل كفريق سواء في المستشفى أو في موقع العمل أو في فريق الكرة، وهي فرصة عظيمة للتعليم، وإذا لم نقم بتعليم أطفالنا فسيقوم المجتمع بذلك، وسوف نعيش مع النتائج السلبية أو الإيجابية نحن وهم طول عمرنا، والوقت العائلي هو وقت عظيم لتعليم دروس تخص الأسرة نفسها.

قالت إحدى السيدات: كانت من أسعد الليالي العائلية عندما أحضرنا مولودنا الجديد من المستشفى، وكانت لحظة تعليم تامة، تحدثنا عن العلاقة الزوجية في ليالٍ عائلية أخرى، وشرحنا لأطفالنا أنها شيء مهم في الزواج الذي هدفه في النهاية إنجاب الأولاد، وأنا يجب ألا نتعامل مع هذا الأمر باستخفاف، لأنه هو الذي يحفظ النوع البشري، وقلنا لهم: إن هذه العلاقة أساسها الحب؛ الحب بين الزوجين، والحب الذي سيعطيه كل فرد في الأسرة لهذا المولود الجديد، والاهتمام الذي سيحظى به منهم، وشرحنا لهم أن الزواج هو التزام بحماية ورعاية الصغير حتى يكبر، ويكون قادرًا على تكوين أسرة بنفسه، ولا أعتقد أن هناك أي شيء كان يمكن أن نفعله لتعليمهم بشكل أكثر عمقًا أو تأثيرًا في عقولهم من إحضار المولود الجديد في وقت الأسرة، والحب والاهتمام الذي حظى به من كل فرد من أفراد الأسرة، ولأن الطفل حديث الولادة يبدو بلا حول ولا قوة، فقد حدث تعاطف وحب من أول لحظة من كل أفراد الأسرة، وتفادينا حدوث أي غيرة من الصغار للرضيع، وكما ترى فإن الوقت العائلي هو وقت عظيم للتعليم، والتغييرات الرهيبة التي تحدث في المجتمع تجعل من الأهمية بمكان تعليم أولادنا مبادئ كثيرة في البيت، فإذا لم نقم بتعليمهم هذه المبادئ فسوف يقوم المجتمع بتعليمهم مبادئ أخرى، وسنضطر للتعايش مع ذلك بقية حياتنا.

3) وقت لحل المشكلات:

ذكرت سيدة من الدنمارك التجربة التالية: حاولنا أن نلتقي في بيتنا معًا كل أسبوع تقريبًا عندما كان الأولاد صغارًا، واستخدمنا هذه اللقاءات في العديد من الأغراض المختلفة، وكانت مناسبة لنلقي بأوراقنا على المنضدة، ونحكي لأولادنا عن الكفاح الذي كافحنه في حياتنا، وكيفية تعاملنا مع ما لقيناه من صعاب، وفي يوم من الأيام فقد زوجي عمله،



واستخدمنا اللقاء الأسري لشرح ما حدث، وصرّحنا لأطفالنا بما لدينا من نقود في البنك، وأوضحنا لهم أن البحث عن وظيفة جديدة قد يستغرق ستة أشهر، ولذلك أوضحنا أننا بحاجة إلى تقسيم النقود إلى ست مجموعات كل منها يمثل مصروف شهر، وقسمنا كل قسم على احتياجاتنا من طعام وغاز وكهرباء وأجرة المنزل.. إلخ، بهذه الطريقة أمكنهم رؤية أين تذهب النقود وما هو القليل الذي يتبقى، ولكننا لم نكن نريد كسر قلوبهم بقول: إننا لن نتحمل شراء ملابس جديدة، أو لن نتحمل اصطحابكم للتنزه في أماكن غالية.

ثم تكلمنا عن مدى صعوبة المسؤولية التي يتحملها الأب لتوفير المال لعائلته، وما يمكن لهذه العائلة أن تفعله في البيت لتخفيف الضغوط عليه، فقررنا مثلاً أن نقضي على كل التصرفات التي تثير غضبه، مثل ترك حقائب المدرسة عند مدخل المنزل، وترك الأحذية على الأرض، وأن نسعى للمحافظة على نظافة البيت وهدوئه، واتفقنا جميعاً على ذلك وشعرنا بالاتحاد لمواجهة الأيام الصعبة التي تواجهنا، في الشهور التالية قمت بعمل الكثير من الكحك مع البنات لإدخال السرور على أسرتنا، ولم نشتر أي شيء يكلف الكثير من النقود، لم نشتر سوى الضروريات، واستمر الأولاد في محاولة إدخال السرور على قلب أبيهم، وكانوا يشجعونه ويقولون له: إنهم يعرفون أنه سيحصل على وظيفة جديدة بسرعة، وأظهروا ثقتهم فيه وفي مهاراته، وعندما حصل أخيراً على وظيفة جديدة كانت فرحة الأولاد أكبر من فرحتنا، وكان احتفالنا بالوظيفة الجديدة رائعاً، بحيث إننا لن ننساها بسهولة، وأنا لا أستطيع أن أحصر الصعاب التي تجنّبناها وذلك لأننا جلسنا كأسرة، وأخذنا وقتنا في شرح الصعوبات وشرحنا موقفنا للأولاد، وكيف يمكننا الخروج من هذه الأزمة.

إن وقت الأسرة هو وقت رائع لحل المشكلات، وهو وقت لمعالجة الاحتياجات الأساسية معاً وإيجاد طرق للوفاء بها، وفرصة لاشتراك أفراد الأسرة في حل المشكلات، لتتولد لديهم المسؤولية المشتركة تجاه أسرهم وإيجاد الحلول لها، حتى يفهم كل أفراد الأسرة ويشعرون بما تمثله هذه الحلول بالنسبة لهم ويلتزمون بها، واستخدام اللقاء الأسري في مناقشة المشكلات بصراحة يزيد من الثقة في العلاقة الأسرية، وفي قدرة الأسرة على حل مشكلاتها ومواجهة أزماتها.



4) وقت للمرح:

تقول ساندرنا (زوجة كوفي): أعتقد أن الليلة الأسرية المفضلة لكل فرد هي تلك التي يوجد بها الكثير من المغامرات، وكان ستيفن يرتب ذلك بشكل مفاجئ لنا، فمرة نقوم بلعب مباراة في الكرة الطائرة في الفناء الخلفي، ثم السباحة في حمام السباحة بالمدرسة الثانوية الخاصة بابني، ثم زيارة محل البييتزا أو الذهاب إلى السينما، أو قد تكون لعب الجولف في مركز الترفيه، ثم النوم في الهواء الطلق في الفناء الخلفي، والتحدث عن النجوم والكون المترامي الشاسع، أو قد ننضم لأسرة أخرى ونقوم بالشواء ثم لعب البولينج، وأحياناً نذهب في رحلة إلى متحف العلوم والديناميكيات، ثم نؤجر فيلم فيديو ونأكل الفيشار معاً، وفي الصيف قد نذهب للسباحة، وفي الشتاء قد نتزلج على الجليد أو نتصارع بكرات الثلج أو نتزلج على البحيرة، ولم نكن نعرف أبداً ماذا ستكون الرحلة القادمة وهذا وحده - يمثل نصف المتعة.

المرح من الأشياء المهمة جداً في وقت الأسرة وفي الحياة عموماً، فهو يربط جيداً بين أفراد الأسرة، وحيث توجد المتعة والسعادة نتقارب أكثر معاً، وكما قال أحد الآباء: وقت الأسرة هو فرصة لعمل شيء لا نجد له وقتاً في خضم الحياة، إن مجرد قضاء الوقت معاً دون التزامات متعة، وهناك دائماً الكثير الذي يحتاج أن تعمله مع أسرتك، وهناك دائماً الكثير الذي يعوقك عن تخصيص وقت للأسرة من العمل في المكتب أو في البيت أو تجهيز العشاء أو إعداد الأولاد للنوم، ولا يجد الأبوان ولا الأبناء وقتاً للاسترخاء والتمتع بوجودهم معاً، ولكن هذا أمر مهم للجميع وبالذات مع تزايد ضغوط الحياة.

لقد اكتشفنا أنه حتى مصارعة الأب مع الأولاد، أو النكات والمزاح مع الأولاد هو أمر علاجي جداً، حيث تتوفر بيئة آمنة تسمح للأبناء بمشاكسة الآباء، أو للآباء بمشاكسة الأولاد، إن ذلك يشعرهم بحبنا لهم، وعندما تصبح الأمور جادة جداً وخطيرة فقد يتساءل الأولاد: «هل بابا وماما يحباني بالفعل؟ هل يجبان أن يكونا معنا؟»، ولكن عند توفير هذا الوقت المرح بانتظام فإنهم يعرفون بالفعل أننا نحب أن نكون معهم، ويشعرون بحبنا لهم، فيبدو أن هذا الوقت الأسري يساعدنا في التعبير عن أنفسنا بعفوية والتصرف بشكل طبيعي، لذلك يتطلع الأطفال لهذا الوقت أكثر من أي شيء آخر خلال الأسبوع، لأننا نستمتع به. إن أولادنا حينئذٍ يربطون بين مفهوم الحب بمفهوم الاستمتاع مع الأسرة، وحتى إذا لم يحدث



شيء آخر خلال وقت الأسرة، فمجرد الفرح الذي يجمعنا معاً يكون له تأثير إيجابي كبير على ما لدينا من رصيد عاطفي، وعندما نضيف الأبعاد الأخرى يصبح وقت الأسرة من أهم الأوقات المؤثرة فعلاً.

3-10 الالتزام بوقت الأسرة:

إن الطاقة التي تُستهلك في دفع مركبة فضائية في الدقائق القليلة الأولى أكبر من الطاقة التي تستهلك في دفعها نصف مليون ميل بعد ذلك خلال عدة أيام حتى تصل إلى القمر، والسبب هو الجاذبية الأرضية والغلاف الجوي، إن التخلص من جذب الجاذبية يحتاج طاقة كبيرة حتى تنطلق في الفضاء، ثم لا تحتاج بعدها إلى طاقة كثيرة للوصول إلى القمر، إن الرحلة إلى القمر تقدم لنا مثلاً ذا دلالة لوصف ما نحتاج إليه لكسر عاداتنا القديمة وتبني عادات جديدة مثل توفير الوقت الأسبوعي للقاء الأسرة، فيمكننا مقارنة الجاذبية الأرضية بالعادات المتأصلة فينا بعمق والميول التي تحكمها الجينات النابعة من الجنس والبيئة والمجتمع الآباء وأشخاص لهم تأثير كبير علينا، ويمكن مقارنة كثافة الغلاف الجوي ببيئة أسرية مضطربة غير ودية، ولذا فهناك قوتان كبيرتان للحفاظ على عاداتنا التقليدية، ولا بد من توافر إرادة جماعية في الأسرة، وإرادة قوية لدى الأب والأم لتكون أقوى من هذه القوى حتى يمكن تحقيق الإقلاع الحقيقي، ولكن بمجرد تغلبك على هذه القوى ستصل للحرية التي ستشعر بها أنت وأسرتك، مثل رائد الفضاء حينما يخرج من إسطار الجاذبية الأرضية والغلاف المحيط بالأرض، فهو يتمتع بحرية مدهشة، ويكون لديه العديد من الخيارات والبدائل خارج نطاق الجاذبية، وكما يقول العالم النفسي الكبير ويليام جيمس: «عندما تحاول عمل تغيير لا بد أن تكون عزيمة قوية، وتتهز أول لحظة للمبادرة والعمل بتلك العزيمة، ولا تسوّف ولا تسمح بالاستثناءات»، وأهم شيء هو الالتزام بالعمل الذي انتويته، وتحدد هذه النية في هذه العبارة الحاسمة: «سيكون لدينا وقت أسرة مرة في الأسبوع»، وإذا أمكنك تثبيت ليلة محددة لذلك يكون أفضل، ضعها في جدولك وأجندتك، وتستطيع أن تغيرها لموعد آخر إذا حدث شيء مهم بالفعل لا تستطيع التخلف عنه، ولكن أخبر زوجتك وأولادك قبل التغيير بمدة كافية، وأعد ترتيب جدولك الأسبوعي لتحديد موعداً آخر للقاء الأسرة، ولا تؤجله للأسبوع الذي يليه، الالتزام هو كلمة السر، سيكون لديك فرصة أفضل كثيرًا لعمل ذلك



على أساس دوري إذا امكنتك تثبيت تلك الليلة في كل أسبوع، كذلك عليك التحدث مع أطفالك عن أهمية قضاء وقت مع الأسرة، حتى يتعودوا عليه وهم صغار لكي يحافظوا عليه إذا وصلوا لسن المراهقة، ومهما يحدث في اللقاء الأسري لا تجعل عزيمتك تثبط حتى إذا نام بعض الأطفال أو شغلوا أنفسهم في تسلق قطع الأثاث.

يقول كوفي: لقد كانت لقاءاتنا تبدأ بصعوبة كأنها مشاجرة، ولكنها كانت تنتهي بهدوء وكأنها صلاة، وقد أجرينا بعض اللقاءات الأسرية عندما كان بعض الأولاد في انشغال كبير، أو كانوا غير مقدّرين لما نقوم به، وأخبرناهم أننا سنقوم باللقاء في موعده ويمكنهم الانضمام إلينا عندما يكونوا مستعدين ولم ننصرف عن اللقاء، وكانوا يشاركون في بعض اللقاءات على مضض، فلما أحسوا بجدية الأمر انتظموا. وما نحاول توضيحه هو أنه ليس من السهل دائماً تثبيت موعد هذا اللقاء أو اقتناع كل الأولاد بجدها، وأنت وزوجتك أحياناً تتساءلان هل اللقاءات التي عقدناها كانت ذات فائدة لأطفالنا؟ في الحقيقة لن تستطيعا معرفة النتائج الواقعية إلا بعد عدة سنوات، ولكنها قد تكون نتائج باهرة.

تقول كاثرين ابنة كوفي: أتذكر أن هذه اللقاءات كانت أحياناً تتسم بالصعوبة، ولكن عندما كبرت وتركت البيت كنت أفكر دائماً في أشياء معينة تعلمتها في هذه اللقاءات وأثرت في حياتي، مما شجعني أن أنظر لأولادي الآن وأقول: هل هم يستفيدون بأي شكل من لقاءاتي معهم؟ وأدرك أنهم - وإن كان يبدو أحياناً وكأنهم لا يستفيدون - فهم في الحقيقة يستفيدون كثيراً، فقد وضعت في هذه اللقاءات الأسس التي ستغير الكثير من سيرتهم، بل إن مجرد عقدنا هذه اللقاءات وإصرارنا على ذلك جعلني أتذكرها وأتحدث مع أولادي الكبار عنها، وأشعر بقناعة كبيرة أن هذه التجربة كانت من العوامل المهمة التي دفعت بأسرتنا لتسير على الدرب الصحيح.

3-11 أوقات الترابط باللقاءات الفردية:

هناك صورة لجبل شاهق كله خضرة كتب تحتها: دع هذا الجبل يستضيفك لمدة يوم واحد، إن الطبيعة الرائعة تجذبنا إليها ونشعر فيها بالاسترخاء وبرحمة الله ونعمه أكثر مما نشعر في البيت، الشيء نفسه يحدث في العلاقات الإنسانية، فقد تصنع شعاراً مثل الشعار السابق ولكن مع تغييره إلى: اقض يوماً مع زوجتك، أو اقض بعد الظهر مع ولدك، بمزاج هادئ



ودون تفكير في مواعيد أخرى أو جرى هنا أو هناك، وإنما حضور ذهني تام معه، مع التنازل عن المصالح الشخصية والمهموم والمخاوف والاحتياجات و(الأنا) في هذا اللقاء، وأن تكون موجودًا بالفعل مع (الزوجة- الابن- الابنة) بكليتك، وأن تسمح لهم بالتعبير عن اهتماماتهم وأهدافهم وطموحاتهم دون إحساس بأنك على عجلة من أمرك.

يقول كوفي: كانت مثل هذه الأوقات ذات مغزى كبير لحياتنا الأسرية، بحيث يمكنني القول - دون شك - أن ثاني أهم عنصر للأسرة هي تلك الأوقات التي تقضيها في لقاءات فردية مع أفراد أسرتك، وفيها يتم تدارك معظم الشؤون الحقيقية للأسرة، وفيها تحدث تغذية القلب والروح، وتبادل الأفكار والتعليم العميق، حيث توثق العلاقات والروابط الأسرية، وكما قال همرشولد الأمين العام السابق للأمم المتحدة: «إن أسمى خدمة هي أن تعطي نفسك كلية لفرد واحد»، ومن هم الأفراد الأكثر أهمية من أفراد أسرتك؟ لا أحد.

3-11-1 اللقاء الفردي مع الزوجة:

يقول كوفي: لا أستطيع بأي حال وصف قيمة الوقت الخاص الذي قضيته مع ساندر، اشتركنا طوال سنوات عديده في قضاء بعض الوقت معًا كل يوم، أحيانًا كنا نركب على دراجتي البخارية ونبعد عن الأطفال وعن التليفونات وتناقش في أي مواضيع، وعندما كان يصعب علينا أن نجتمع معًا كنا نتحدث في التليفون عدة مرات في اليوم، هذا التلاحم والاتصال هو الذي زاد من بنية زواجنا وقواها، وبذلك ندخل إلى ساحة أسرتنا بحب فيّاض واحترام كل منا للآخر وإحساس كبير بالتلاحم، ولدينا بعض الأصدقاء المتزوجين الذين يتمتعون بهذه الأوقات الفردية معًا بطريقة مختلفة، ففي كل ليلة جمعة يهتمون بالعناية بأولادهم، ويقضون عدة ساعات يركزون على بناء علاقات ببعضهم، ثم يخرجون جميعًا لتناول العشاء في الخارج أو مشاهدة فيلم أو مسرحية، وقد يذهبون للجبل أو لتصوير الزهور، واستمروا على ذلك لمدة ثلاثين عامًا، وكانا يعتزلان الآخرين مرة أو مرتين في العام ويذهبان لكاليفورنيا التي كانت بعيدة عن منزلهم كي يمشوا حفاة الأقدام على الشاطئ، ويشاهدا الأمواج ويستعرضا رسالة أسرتهن، ويتفقا على الأهداف التي سيسعيان لتحقيقها في السنة القادمة، ثم يعودا وقد جددا نشاطهما، وكانا يشعران بقيمة هذه الأوقات وتأثيرها على زواجهما.



هذا النوع من الوقت الخاص مهم جدًا للزواج وللأسرة، فهناك حاجة ملحة لجلوس الأزواج والزوجات معًا للتخطيط بعناية لتأمين مستقبلهم، ومستقبل أولادهم بصورة عقلية وروحانية معًا، والتخطيط ليس بالشيء السهل ويحتاج التفكير بروية، ومعظم الأزواج مشغولون جدًا بجداول الأعمال المزدحمة والمكالمات الهاتفية والتعامل مع الأزمات التي يمرون بها، دون مناقشة ذلك مع زوجاتهم بطريقة هادفة وجادة، ولا بد أن يكون التخطيط السليم هو المسعى الأول لتكوين أسرة سوية بنجاح، ولا بد أن يكون له دور حيوي ومهم في أي أسرة، لأنه يعطي نتائج مدهشة، فعندما يشترك الزوجان في التعامل مع أي أمر من الأمور الخاصة - وخاصة تربية الأطفال - فإن ذلك يفتح بابًا للتآزر والتكامل والرؤية الثابتة على مصراعيه، وتقوي العزيمة، أما الرؤية فتكون أكثر تتمامًا لو ناقشها معًا، وتكون الحلول عملية وأكثر قابلية للتنفيذ، وتكون هذه المشاركة برمتها تقوية للأواصر بينهما.

وقالت أم - أولادها كبروا - لكوفي: «اعتدنا أن نمكث أنا وزوجي في بيتنا ثلاث ليالٍ في الأسبوع طوال فترة بعد العمل لنكون مع أطفالنا، وقبل ذهابهم للفراش بساعة ننفرد أنا وزوجي بأنفسنا في غرفتنا نستمع للموسيقى أو نشاهد التلفاز أو نتبادل أخبارنا في العمل، أو نتحدث في مسائل عائلية، في هذه اللقاءات يساعد كل منا الآخر على استرجاع توازنه، كنا عندما نرجع إلى البيت من العمل نكون في خدمة أبنائنا؛ لأننا نعلم أننا في العاشرة والنصف سوف نلتقي نحن الاثنين معًا حيث نمضي وقتًا ممتعًا رائعًا، والأولاد يفهمون ذلك ولا يزعجوننا في هذا الوقت، فلا يطرقون الباب إلا لأمر مهم، لأنهم يعلمون ماذا يعني لنا هذا الوقت كزوجين، لأننا أخبرناهم بذلك وأخبرناهم أننا إذا كنا زوجين متفاهمين فستكون أسرتنا أكثر قوة، بالنسبة لنا كان ذلك أفضل من اللقاء خارج المنزل، حيث تتدخل أشياء أخرى تحول دون انفرادنا ببعض، فالجرسون والأصدقاء الذين نقابلهم وزحمة المرور تقلل من متعة الوقت الذي نقضيه معًا، وهذا لم يكن موعداً يومياً فقط بيننا بل كان التزاماً يجمعنا دائماً في هذا الوقت، حيث يؤكد كل منا للآخر سبب وجودنا معًا واختيارنا لبعضنا وتعلقنا ببعضنا.

يقول كوفي: في أسرتي لاحظت أن اللقاء الفردي مع ساندرنا يقوي العائلة كلها بشكل كبير، وكما قال شخص حكيم: «إن أعظم شيء تقدمه لأولادك هو أن تحب زوجتك»، لأن



أتم علاقة في الأسرة هي العلاقة بين الزوجين، ونوعية هذه العلاقة هي التي تحكم نوعية الحياة الأسرية، فالأولاد يستمدون شعورهم بالأمن من طريقة تعامل أبيهم وأمهم معاً، ويستمدون قيمهم من احترام الأبوين أحدهما للآخر، ولذلك فإن الاهتمام ببناء وتقوية العلاقة بين الزوجين لها تأثير قوي على ثقافة الأسرة كلها.

3-11-2 اللقاءات الفردية مع الأولاد:

من الأهمية أيضاً ترتيب لقاء فردي مع كل طفل من الأطفال، بحيث يسجله الطفل في جدول، وهذا يعني قضاء أحد الأبوين وقتاً كافياً مع أحد الأطفال، لأن بناء العلاقة الأساسية يتم باللقاء الفردي، والاهتمام بذلك بشكل جيد ودائم ضروري وبطريقة تراعي العدل بحيث تمنع جذور الغيرة والتنافس بين الأطفال من أساسها، وهذه اللقاءات الخاصة هدفها تطوير شعور الحب بدون مقابل والتقدير الاجتماعي والاحترام، عن طريق زيارة خاصة أو موعد خاص مع أحد الأطفال، هذا الحب والاحترام الذي ينشأ لن يتبدل أو يتغير ابداً، وهذه الأوقات الخاصة تؤكد للطفل أنه يمكنه الاعتماد على هذه العلاقة عندما تنشأ الخلافات والمشكلات، فهذه العلاقة تؤسس جوهرًا تسانده المبادئ الثابتة، مما يساعد طرفيها على التكيف مع المتغيرات الخارجية.

فتقول الابنة كاثرين: أتذكر عندما كان عمري 10 سنوات جاء دوري للقاء مع أبي، وكنت أحب مشاهدة فيلم حرب النجوم مع أبي شاهدته أربع مرات قبل ذلك، وكنت أعلم أن أبي يكره أفلام الخيال العلمي، فترددت ماذا أطلب منه عندما سألتني: ماذا أريد أن أفعل هذه الليلة، ولكنني قلت له ما أريد، فاكتشفت أنه حريص على تنفيذ رغباتي، وقال لي: سنفعل أي شيء تريدان القيام به ياكاترين فهذه ليلتك، وكان هذا بمثابة حلم يتحول إلى حقيقة: ليلة مع أبي وحدنا ونشاهد فيلمي المفضل أيضاً، ولما علم برغبتني تردد قليلاً قبل أن يقول مبتسماً: حرب النجوم، حسناً، يمكنك أن تشرحي لي، وذهبنا لمشاهدة الفيلم، وعندما جلسنا على المقاعد وعلبة الفيشار في يدي أتذكر أنني شعرت كم أنا مهمة بالنسبة لأبي، وعندما بدأ الفيلم وخفضت الأضواء بدأت في الشرح بصوت منخفض وحدثته عن القوة وميزتها، وعن «الإمبراطورة» وشرورها، لقد شرحت لأبي كل شيء كان يجده غريباً وغير مألوف، وكان يجلس صامتاً يومئ برأسه ويصغي، وبعد العرض ذهبنا لتناول الآيس كريم، فبدأ يسألني عن



بعض المبادئ في الحرب بين الخير والشر، فشرحت له ما فهمته فيها من كل قلبي، وكنت طول الوقت أجيب عن الأسئلة التي كان يطرحها عليّ، وفي نهاية المساء شكرني والدي للذهاب معه في موعد خاص، وتعريفه على دنيا الخيال العلمي التي لم يكن يعرفها بهذا القدر، وبينما كنت أغفو في فراشي في هذه الليلة شكرت الله لمنحي أبا يعتني بي ويصغي إليّ، ويجعلني أشعر بأهميتي عنده، لم أعرف أبدًا ما إذا كان أبي قد أحب حرب النجوم مثلي أم لا، ولكنني عرفت أنه يحبني أنا، وهذا ما يهمني.

لا شيء يجعل طفلك يشعر بقيمته لديك وبعلاقته بك أكثر من تكريس وقت له، وإذا كنت تنوي تطبيق مقولة: «لاعبه سبغًا، وأدبه سبغًا، وصاحبه سبغًا، ثم اترك له الجبل على غاربه» فإن لقاءك معه من سن العاشرة ستمهد لهذه الصداقة في سن الرابعة عشرة.

هناك أم تعول خمسة أولاد أعربت عن آرائها بخصوص الرباط العميق الذي نتج عن اللقاءات المستمرة بأبنائها، وقالت: إنها عندما دعت أكبر أولادها وكان يبلغ من العمر 22 عامًا للغذاء، وراحت تسأله عما ينوي فعله في المستقبل، قال لها: «أمي أنا لا أعرف ماذا أريد أن أكون عندما أخرج». وكان يبدو مهمومًا، فقالت له: «وأنا كذلك لا أعرف ماذا أريد أن أكون عندما أكبر!! فالحياة تتغير، وأحيانًا عليك أن تركز على شيء واحد»، وتناقشنا كثيرًا بشأن مستقبله، وخرجنا بأفكار لم نخطر على باله من قبل، مثل الحصول على دبلومة في الأعمال التجارية العالمية، وتعلم اللغة البرتغالية لعمل مشروع بالبرازيل، لقد قضينا وقتًا معًا نتبادل الآراء بصراحة وقلب مفتوح.

وعندما فكرت في ذلك فيما بعد أدركت أن هذا لم يحدث صدفة، ولكن كان نتيجة أننا كتبنا رسالة الأسرة قبل سنوات، وقررنا وضع هدف، هو: أن نعين بعضنا على تحقيق أهدافنا في الحياة، وحددنا لقاء شهريًا مع كل منهم على انفراد لمتابعة ذلك، لقد بدأت هذا التقليد عندما كانوا في نهاية المرحلة الابتدائية، ولم أكن بالتأكيد ممتازة في تطبيق ذلك، ولكن هذه اللقاءات أحدثت فرقًا في علاقتنا مع بعضنا، ولا أعتقد أنه كان بالإمكان التحدث بهذه الصراحة والوضوح مع ابني الذي بلغ من العمر 22 سنة لو أننا لم نبدأ ذلك عندما كان أصغر سنًا، فهذا أمرنا معنا، ونشعر بالارتياح له ونحن نمضي في الحياة معًا، لقد أدركت أنه يجب على الآباء أن يتحولوا من والدين إلى صديقين عندما يكبر أولادهم، ولقاءاتي الفردية



الشخصية مع أبنائي عبر سنوات جعلت هذا التحول أسهل كثيرًا؛ لأن الصداقة كانت قد نشأت بالفعل من قبل.

وهناك حكاية لامرأة لاحظت أنها لا تستطيع أن تخطط دائمًا لما هو آتٍ من لقاءات فردية بشكل جيد، وقالت: «إنه بالإضافة إلى لقاءاتنا المخطط لها كانت هناك أوقات نلاحظ فيها أنا وزوجي أن أحد أبنائنا يعاني من مشكلة، وكوالدين كنا نغتنم هذه الفرصة للقاء معه، كان زوجي يصحبه معه للصيد، أو أصحابه أنا لتناول الغداء، كنا نتناوب الأدوار ولا نذهب معًا، حتى لا يشعر أولادنا أننا نتآمر عليهم، فأحيانًا كانت المشكلة مع زملائهم في الفصل أو مع مدرس لا يحبونه، أو أنهم يجدون صعوبة في عمل الواجب المدرسي في الميعاد، وكنا نقول لهم ونحن في طريقنا للمنزل: هل نعود للبيت وتحدث في هذا الموضوع؟ هل تريدون المساعدة في هذا؟ وكان القرار دائمًا هو قرارهم، ولاحظنا أنهم يحتاجون لمعرفة كيفية اتخاذ القرار، ولكننا أدرنا أيضًا أن كل فرد بحاجة للتحدث مع شخص ما، وبحاجة أيضًا إلى معرفة رأيه، ولا بد أن تكون موجودًا من أجلهم بدون أن تخطط له مسبقًا، بل كجزء من قلبك ومن اهتمامك بأطفالك كأحد الأبوين، وتدرك أنك لا بد أن تقضي بعض الوقت في لقاء منفرد معهم، فطفلك في حاجة إليك، أهم شيء أن تأتي الأسرة في المرتبة الأولى، وأنا وزوجي على قناعة أنه إذا وضعنا الأسرة أولاً فلن نجد مشكلة في الأسرة تحتاج لسنوات أو حتى لشهور لحلها، بل سوف نقضي عليها في مهدها أو في بدايتها، لاحظ أن إعطاء الأولوية للأسرة هو أسلوب تفكير والتزام في الوقت نفسه، فهو يرتبط دائمًا بأهمية الأسرة، والعمل اعتمادًا على هذه القيمة أكثر من العمل طبقًا لما هو ملح في هذه اللحظة.

وتقول جيني (ابنة كوفي): إحدى الذكريات الجميلة للأوقات الأسرية التي قضيتها مع والدي كانت في صيف 1996، وكان أبي يوقظني في السادسة صباحًا ثم نركب الدراجة معًا، ونسير على طريق جبل لمدة ساعة فلنتحدث عن كل شيء ونحكي قصصًا، لقد علمني الكثير من الدروس، وكنت أقول له كل شيء، وكانت الرحلة تنتهي عادة بمشاهدة شروق الشمس، وشرب الماء من ينبوع عذب، وأنا دائمًا ما أتذكر هذه الرحلات بالدراجة وأتذكر جمال الطبيعة، يقول كوفي: هذه الأوقات تعطيك فرص بناء علاقة مع أولادك، وتجعل لك حسابًا في بنك العواطف الخاص بهم، وبذلك يمكنك أن تقوم بالتعليم، وقد وجدت أنا



وساندرا أن علينا إمضاء الوقت مع كل طفل على حدة، للتحدث عن أسراره، وعند إعطائه الاهتمام الكامل نشعر باندهاش لمدى تأثير تعليمنا وتربيتنا، ونذهل للنتيجة الإيجابية التي تحدث عندما نبعد أنفسنا عن الضغوط، ونحاول التركيز في تعليم أولادنا وتربيتهم على مبادئنا، ووضع الأولاد على الطريق الصحيح.

3-12 ضع الصخور الكبيرة أولاً؛

هذه الأوقات الأسرية الأسبوعية، واللقاءات مع كل فرد من أفراد العائلة على حدة، هي لقاءات مهمة وأساسية للتعامل مع الحاجات العائلية، وزيادة الإيداعات في حساب بنك العواطف، وخلق البيئة الجميلة للأسرة، ولكن كيف يمكنك عمل ذلك؟ وكيف تدير وقتك بحيث يكون هناك لقاء أسري منتظم وذو أهمية لأفراد أسرتك؟ استخدم خيالك لحظة، تخيل منضدة فوقها دورق كبير ممتلئ لثلاثيه بالرمل، وبجوار الدورق توجد عدة صخور كبيرة ولكنها أصغر من فوهة الدورق، الآن افترض أن هذا الدورق يمثل الأسبوع القادم في حياتك، وأن الرمل يمثل جميع الأشياء التي تقوم بها عادة، وأن الصخور الكبيرة هي وقت الأسرة واللقاءات الفردية مع أبناءك، والأشياء الأخرى المهمة مثل العمل على تفعيل بيان مهمة الأسرة، أو التمارين الرياضية لتحافظ على لياقتك الجسدية، وهي الأشياء التي - في هذه اللحظة - لا تستطيع أن تجد لها مكاناً في جدولك، ثم تخيل أن مهمتك هي أن تدخل الصخور الكبيرة في الدورق، ولكنك لا تستطيع أن تضع إلا واحدة أو اثنتين فقط، ولكنك لو بحثت في الصخور الكبيرة قبل وضعها ودرست أحجامها وأشكالها، واخترت صخوراً مختلفة الأحجام لاستطعت وضع المزيد منها في الدورق، الآن تستطيع وضع ثلاثة بدلاً من اثنتين، ثم افترض أنك أخرجت الصخور الثلاث ثم سكب الرمل على المنضدة، ثم حاولت إدخال الصخور الكبيرة أولاً، قد تستطيع في هذه الحالة إدخال خمس أو ست قطع، فإذا سكب الرمل عليها لأمكن إدخال أغلب الرمل كذلك في الدورق (بين الصخور).

والدرس المستفاد هنا هو: أنه إذا لم تضع الصخور الكبيرة أولاً فلن تجد لها مكاناً، ولذلك عليك أن تضع الصخور الكبيرة أولاً، وهذه الصخور الكبيرة تمثل بعض المواعيد المهمة فعلاً، بما فيها المواعيد الأسرية، أما الرمل فيمثل كل المواعيد الأخرى الأقل أهمية،



وبذلك فأنت تستطيع أن تعيد ترتيب الأشياء بحيث تجد الوقت المطلوب للالتزام بارتباطاتك الأسرية.

تقول سثيا (ابنة كوفي): كان أبي كثير السفر خارج المدينة وأنا في مرحلة النمو، ولكننا قمنا بالعديد من الأشياء معاً أكثر من أي أسرة أخرى أعرفها، وقضيت معه وقتاً بمفردي أكثر من أي واحدة من زميلاتي اللاتي كان أبأوهن يعملون من التاسعة إلى الخامسة ولا يسافرون إلا نادراً، وأعتقد أن هناك سببين لهذا، أحدهما: أنه كان دائماً يخطط للأمام، فهو يؤمن فعلياً بأن يكون مبادراً، وأن يبدأ هو النشاط، ويؤمن بالإيجابية، وفي بداية كل سنة دراسية كان يريد دائماً أن يعرف مواعيد مباريات كرة القدم للأولاد ومواعيد حفلات البنات، ولم يكن ينسى أي شيء مهم، وكان نادراً ما يكون غائباً عن اللقاء الأسري، فقد كان يرجع للبيت دائماً في عطلة نهاية الأسبوع حتى تقوم بالأنشطة ونذهب للكنيسة معاً، وكثيراً ما كانت زميلاتي يحاولن إثارة غيظي بقولهن: لقد سافر والدك مرة أخرى، ولكنهن لم يكن يتواصلن مع آبائهن بقدر ما أفعل، رغم أن أبأهين لا يسافرون، بل كانوا يمضون وقتهم في مشاهدة التلفاز، وأنا أستطيع الآن بعد أن تخرجت وعملت أن أدرك الجهد الذي كان يبذله أبي حتى نستطيع أن نجتمع معاً أسبوعياً، ونذهب للكنيسة معاً، ونقوم بالعديد من الأنشطة الأخرى، وبسبب وظيفة أبي الصعبة، ووجود تسعة أطفال يذهبون إلى خمس مدارس مختلفة، فلا بد أن الأمر كان صعباً جداً عليه، ولكنه لم ييأس ووجد طريقة للقيام بذلك. وأعتقد أن السبب الثاني لقضاء وقتنا معاً هو إرساء القواعد، فلا تذهب لأي مكان يوم الأحد - وبالذات مساءً - لأنه يوم تجمع الأسرة، ونحن عادة ما نقوم بعمل شيء ما في ليلة الإثنين (مساءً الأحد) كلنا معاً، وكان هذا جزءاً أصيلاً من البيئة التي نعيشها.

يقول كوفي: «تجاري بخصوص شعوري بالألم والإحباط إذا لم أستطع أن أكون موجوداً أثناء الأحداث المهمة لأطفالي في أنشطتهم المختلفة جعلني أعتد محاولة وضع الصخور الكبيرة أولاً، ففي بداية كل سنة دراسية حاولت أنا وساندرا إقناع المدارس لإفساح بعض الوقت للمناسبات التي تجتمع فيها العائلة الكبيرة وتضم الأبناء وأجدادهم، ووضعنا أولوية كبيرة لحضور تلك المناسبات التي تجتمع فيها العائلة الكبيرة، وحضضنا الأبناء على حضور مناسبات بعضهم البعض، ولكن مع وصول عددنا الآن لحوالي خمسين فرداً فإننا جميعاً لا



نستطيع حضور الأنشطة الخاصة بكل فرد، ولكننا نفعل ما نستطيع، ونحرص على أن نتواجد في مناسبات لجميع أفراد الأسرة لنشعرهم بأهميتهم وأهمية أنشطتهم لنا، وكذلك كنا نخطط للإجازات العائلية الرئيسية مقدماً لمدة سنتين وأحياناً ثلاثة، وسيظل الوقت الأسري ولقاءاتنا العائلية أمراً مقدساً لدينا.

وأستطيع أن أؤكد أنه لا يوجد شيء يمكن أن تقارنه بسعادتنا التي تنتج من وضع الأسرة في المرتبة الأولى، ومع تزايد ضغوط الحياة نجد أنه ليس من السهل أن نقوم بهذه الأمور، ولكن من الصعب جداً التخلي عنها، وإذا أنت لم توجد الوقت من البداية لبناء العلاقات واستثمارها لتوحيد وتنظيم أسرتك فستقضي وقتاً طويلاً فيما بعد في إصلاح العلاقات التي تدهورت، واستعادة التأثير على الأطفال الذين خرجوا من نطاق الأسرة نتيجة القوى الاجتماعية والإعلامية التي تتجاوزهم بعيداً عنها، وبالنسبة لكل من يقول لي ليس لدينا وقت لهذه النوعية من الأمور، أقول: «ليس لديك وقت لعدم إدراكك أهمية هذه النوعية من الأمور»، الشيء المهم هو التخطيط مقدماً وبقوة، وعندما تتوفر الإدارة تتوفر الوسيلة، وعندما تضع الصخور الأسرية الكبيرة أولاً ستبدأ بالإحساس باطمئنان داخلي ورضا، ولن تستمر في الشعور بالتمزق بين الأسرة والعمل، في الواقع ستجد أنك تستطيع عمل الكثير في مجالات أخرى بسبب اطمئنانك على أحوال أسرتك، وبسبب عدم قضائك الكثير من الوقت في إصلاح الخلافات والمنازعات والأمور السلبية داخل الأسرة».

إن الالتزام بهذه اللقاءات المجمعة والفردية يحيي مبادئ الحياة الأسرية الفعالة، ويخلق بيئة أسرية جميلة، وعندما تبعد عن مركز هذه البيئة الأسرية الجميلة يسهل انسياقك وراء اتجاهات أخرى، أما الالتزام بالأسرة فيقي أولادك -ويقيك أيضاً- الانجراف وراء النظم الثقافية الجديدة القائمة على تحقيق مقابل مادي دائماً، وعندما تجد نفسك غارقاً بداخلها فإن السؤال الذي سيلح عليك هو: هل هناك أفضل من هذا الوضع الذي أنا فيه؟ وكيف أصل إليه؟ ضع أسرتك على رأس أولوياتك ولن تحتاج أن تسأل هذا السؤال أبداً.

13- تنظيم الأدوار:

بدلاً من الاكتفاء باختيار الأدوار وجد كوفي وساندران أفضل وسيلة - كي يتخلصا من الأعباء الثقيلة في حياتهما - هي أن ينظما أدوارهما، بما في ذلك أدوارهما الأسرية، وأن



يضع أهدافاً لكل دور من تلك الأدوار موزعة على الأسابيع، وقد ينهمكان في تنفيذ هدف أو هدفين لدرجة أنها يقرران عدم النظر في بقية أهداف الأدوار الأخرى، فمثلاً عندما كانت ساندار تمضي أسبوعاً في مساعدة إحدى بناتنا في رعاية وليدها، فذلك يعني أنها اختارت الاستغناء مدة هذه الفترة عن أية أنشطة اجتماعية أخرى، أو أي مهام أخرى ترغب في القيام بها في منزلها، لكنها تتخذ هذا القرار بملء إرادتها، وتشعر بالطمأنينة لأنها في الأسبوع التالي ستعود لأدوارها وأهدافها الأخرى، لقد اكتشفنا أن استخدام الأدوار والأهداف يجعل حياتنا أكثر توازناً، فكل دور يلقي منا الرعاية التي يستحقها، وهكذا لا يفوتنا أي شيء مهم في ظل الضغوط اليومية.

14- نظرة سريعة للخلف وللأمام:

والآن، وقبل أن نتقل إلى عادة جديدة فلنأخذ لحظة في إلقاء نظرة للخلف، والتفكير بشكل أشمل في العادات الثلاث الأولى التي غطيناها حتى الآن، العادة الأولى: كن مبادراً هي أهم قرار تتخذه، فهي تحدد هل ستكون مسئولاً أم ستعيش دور الضحية؟ وإذا اتخذت قراراً بأن تكون مسئولاً، وأن تأخذ بزمام المبادرة وأن تكون القوة الخلاقة في حياة أسرتك، عندئذٍ سيكون أهم قرار تواجهه هو: ماذا عن حياتك أنت؟ فتدخل على العادة الثانية: ابدأ والرؤية واضحة في ذهنك، هذه الرؤية هي التي يجب أن تضعها في بيان مهمة أسرتك، وهذا ما يسمى بالقرار الإستراتيجي؛ لأنه سيحكم كل قرار آخر بعده، ثم تأتي العادة الثالثة: ابدأ بالأهم ثم المهم، ويصبح تطبيقها سهلاً طالما أن الرؤية واضحة، أي أن وضوح الرؤية سيجعلك تضع أسرتك على رأس أولوياتك بسهولة، وتبقى كيفية عمل ذلك، وقد ركزنا على أسلوبين مهمين للأسرة، وهما: الوقت الأسري الأسبوعي، واللقاءات الفردية بين الوالدين وأبنائهما، وتزداد أهمية هذين الأسلوبين وتحمل الوالدين لمسئولية التربية مع ضعف تأثير المجتمع - ممثلاً في المدرسة والإعلام والقدوة الصالحة - على تكوين الأسرة السليمة، أي أن العبء صار على الوالدين أكبر مما كان قبل تغير البيئة المحيطة هذا التغير الفطيع، عندما توغلت عولمة الأسواق والتقنية الحديثة التي تغير كل الصور الاقتصادية التقليدية، وكلما بعدت البيئة عن المبادئ وأغرقت في المادية، كان على الأبوين أن يكونا قويين وحاسمين في إيجاد واستخدام المبادئ الجديدة التي تجعلنا دائماً نعود إلى المسار الصحيح كلما انحرفنا عنه.



يقول كوفي: وأنت تفكر في تنفيذ هذه العادات في أسرتك أريد أن أذكرك أنك أنت الخبر في أسرتك، وأنت أكثر واحد يعرف ما يصلح لها، أنت وزوجتك، ويقول: أثناء مشاركة في مؤتمر في الأرجنتين تكلمت مع آباء تجمعوا من سائر أنحاء أمريكا اللاتينية لحضور المؤتمر، وطلبت منهم تعليقات على الأفكار التي في هذا الكتاب، وقد كان رد فعلهم إيجابياً جداً، ولكنهم لم يفهموا ضرورة الوقت الأسري الأسبوعي، لأنهم يعيشون في بيئة أسرية شرقية جداً، فبالنسبة لهم كل ليلة تقريباً هي وقت أسري كجزء طبيعي من حياتهم اليومية، ولكن بالنسبة لعائلات من مجتمعات غربية فإن فكرة عمل بيان بمهمة الأسرة والوقت الأسري الأسبوعي واللقاءات الفردية كانت بعيدة عنهم تماماً، وكانوا لا يريدون أي شيء من ذلك في حياتهم، ربما لإحساسهم المبالغ فيه بالحرية وقيمة الفرد، وأن هذه الأساليب ربما تحجب عنهم الإحساس الكامل بالحرية، وربما كانت لديهم طاقة سلبية، أو حكم مسبق سلبي على نظام الأسرة نفسه وبالذات مع وجود الأولاد فيه، فهناك أمحال اجتماعية ونفسية كبيرة في المجتمعات الغربية، وهناك متغيرات اجتماعية ضخمة جعلت بقاء اثنين معاً دون زواج سائداً ومرغوباً فيه أكثر من الزواج.

إذا كان هذا محور تفكيرك فالأفضل لك ولأسرتك أن تحاول إعطاءها الأولوية في حياتك، ولو على حساب حريتك، فالأمر ليس أمر حرية فردية فقط، فهناك التزام تجاه زوجتك وأولادك، وربما عليك أن تحاول التعرف أكثر على قيمة بيان مهمة الأسرة، ابدأ من حيث تريد، ابدأ بتطبيق بعض - وليس كل - هذه الأفكار في حياتك، ربما كل ما عليك أن تفعله الآن هو أن تعد فرداً في أسرتك (أي فرد) وتحافظ على وعدك له، ربما عليك أن تختار هدفاً واحداً سهلاً وتحاول تحقيقه، فقد يكفي هذا حالياً، وربما بعد ذلك ستشعر أنك تستطيع أن تقوم بمهمة أكبر، أهم شيء ألا تفقد المبادرة، قم باختيار هدف بسيط وحاول تحقيقه بإرادة قوية فسيزداد احترامك لذاتك، ثم ستجد نفسك مهيباً للانتقال إلى ساحات جديدة، ربما يكون فيها تلك الأنشطة التي ركزنا عليها في العادات الثلاث الأولى، مثل وضع بيان بمهمة الأسرة وعمل أمسيات أسرية أسبوعية وعمل لقاءات فردية خاصة مع كل فرد في الأسرة.

المهم التعرف على مكانك حالياً والبدء منه، وأنت لا تستطيع المضي في تنفيذ شيء قبل تعلم هذا الشيء وبعض الأشياء الضرورية يجب أن تحدث قبل أشياء أخرى، كن صبوراً مع



نفسك، وحتى إذا لم تكن تستطيع الصبر فتصبر، فإنما الصبر بالتصبر كما قال رسولنا الكريم ﷺ، والآن ربما تقول: ولكن وضعي مختلف والأمر صعب جداً بالنسبة لي، ولا يمكنني القيام بأي من هذه الأشياء بأي شكل، ولكن تذكر عبارة صادقة إلى حد كبير: عندما تتوفر الإرادة تتوفر الوسيلة، فكّر كيف يمكنك تحويل أسرتك تحويلاً جذرياً إلى الأفضل عن طريق الأوقات الأسرية واللقاءات الفردية التي ستوجد نوعاً من الروابط القوية والإرادة الجمعية في أسرتك، فكّر في قوة الترابط هذه وفي خلق الإرادة الاجتماعية المشتركة وروح الجماعة في الأسرة، وكيف يمكن تميمتها في الأسرة، وهذا سيكون تركيزنا في العادتين الخامسة والسادسة، العادة الخامسة هي: افهم أولاً حتى يسهل على الآخرين فهمك، والعادة السادسة هي: تكاتف وتآزر مع أفراد أسرتك.

وهنا لا بد أن أختلف مع منهج ستيفن كوفي في الجزء الثاني من كتابه والذي يبدأ بالعادة الرابعة: المكسب المشترك، فربما تكون هذه عادة مهمة في عالم رجال المال والأعمال، أما في عالم الأسرة فالعلاقة بين أفرادها يجب أن تقوم على التضحية وليس على المكسب المشترك، كما أن التغير الهائل في البيئة المحيطة وفي المجتمع، وعدم وجود دعم للأسرة كما كان سابقاً، كل ذلك يستدعي أهمية قيام الأبوين بمسئولتهما عن تنشئة أبنائهما، فأين العادة التي نتحدث عن هذه المسؤولية، إن مؤسسة الزواج مؤسسة تقوم على الالتزام والمسؤولية، والأسرة الشرقية تتمتع بحب والتزام من الأبوين تجاه أبنائهما حتى الممات؛ لذلك فحب الأبوين مشروط بالتزام أبنائهما بالطريق القويم، أما الخروج عن المبادئ ومصاحبة قرناء السوء وتعاطي المخدرات، ثم نقول للأبوين: أحبا أولادكما حباً غير مشروط، فهذا ما جنته الحضارة الغربية على مؤسسة الأسرة، بحيث صار الموجهون - مثل كوفي - يخافون أن يوجهوا الآباء لتقويم سلوك المراهقين؛ لئلا ينفصلوا عن الأسرة ويعيشوا بمفردهم، ولكن - والحمد لله على الإسلام - الأسرة عندنا لا بد أن تقوم على المبادئ والقيم حتى ولو لم يكن الأبوان من الملتزمين دينياً، وحتى لو كانوا من العلمانيين، فلا يمكن أن يقبلوا أن تقيم ابنتها علاقة خارج الزواج ولا أن يتعاطى ابنهما المخدرات، ولا بد أن يارسا مسئوليتها تجاه أبنائهما، ولذلك فإنني سأدرج عادة رابعة مختلفة عن العادة الرابعة عند كوفي، وهي: مارس مسئوليتك بدلاً من فكر (مكسب - مكسب).